أثر انتشار الدعوة والحضارة الإسلامية على الحياة الاجتماعية حول حوض تشاد

دكتور: محمد صالح أيوبه *

تاريخ انتشار الحضارة الإسلامية حول بحيرة شاد :

يتفق الباحثون الأفارقة والأجانب في الوقت الحاضر على حقيقة أن أول انتشار للحضارة الإسلامية حول بحيرة شاد كان في القرن السابع الميلادي ، الأول الهجري .

فقد أكد "شابل" في كتابه "المجتمع الشادي" أن انتشار الإسلام في شاد يرجع إلى عام ٦٦٦م-٦٦٧م، ٤٦ هـ أي في القرن الأول الهجري عندما وصل عقبة بن نافع إلى جبال كوار حول بحيرة شاد "[١]" .

وأكد الباحث الأفريقي "كاني" هذه الحقيقة بقوله : "يبدو أنه لم يكن هناك اتصال ثقافي مباشر بين شمال إفريقيا وكانم - برنو إلا في بداية دخول الإسلام إلى منطقة السودان الأوسط ، وأن أول وجود للمسلمين في كانم - برنو يرجع إلى سنة ٤٦هـ (٦٦٦م) وهي السنة التي وصلت فيها طلائع المسلمين بقيادة عقبة بن نافع إلى إقليم كوار ، وأن هذا الطريق كان يمثل قناة يتدفق من خلالها التأثير الإسلامي المبكر إلى كانم - برنو وإلى المناطق الأخرى في السودان الأوسط "[٢]".

وقد أورد الشاطر بصيلي في كتابه "تاريخ وحضارات السودان الشرقي والأوسط" أن عقبة بن نافع دخل في عام ٦٦٦م ، في وسط الصحراء متجها إلى الجنوب ، ووصل إلى كوار في التبستي الواقعة شمال منطقة حوض شاد ، وعاد من هناك لأنه لم يجد خبيرا يرشده الطرق إلى الجنوب وكانت المسافة التي تفصل بينه وبين طريق السافنا صغيرة نسبيا "[٣]" .

---

* عميد كلية اللغة العربية وأستاذ علم الاجتماع المشارك بجامعة الملك فيصل بتشاد .

ويشير الدكتور ، السيد عبد العزيز سالم في كتابه :المغرب الكبير ، أن عقبة بن نافع افتتح مواقع من بلاد السودان تلي ودان في سنة ٤٣هـ"[٤]" . ويلخص لنا جميع هذه الآراء الدكتور الطيبي في مقال له بعنوان "وصول الإسلام وانتشاره في كانم – برنو بالسودان الأوسط" فيقول : وخلاصة القول أن الإسلام بدأ وصوله إلى بلاد كانم منذ أن فتح العرب المسلمون فزان وكوار ،ومنها أخذ الإسلام في الانتشار رويدا رويدا في السودان الأوسط عن طريق الجاليات من تجار المسلمين في البلاد ، ثم وصل إلى كانم في منتصف القرن الثاني للهجرة ، الثامن الميلادي نفر من بني أمية فرارا من بطش العباسيين واستقروا في البلاد ، كما ذكر البكري في كتابه المسالك والممالك "[٥]" .

ويشير "ديرك لابجي" في مقال له بعنوان "ممالك شاد وشعوبها" نشره في موسوعة تاريخ أفريقيا العام التي أصدرتها اليونسكو إلى ممالك كانم كان لها اتصال مبكر بالحضارة الإسلامية بدليل أن الرحالة والجغرافيين عرفوها منذ وقت مبكر وكانت هذه المملكة تسيطر على الجزء الأكبر من إقليم بحيرة شاد ، ولهذا يسميها مملكة كانم العظيمة ، رغم أنه يقر بجود ممالك أخرى في هذا الإقليم "[٦]" .

وذكر القلقشندي مصادر عديدة كتبها الرحالة والجغرافيون العرب الأوائل فيها معلومات هامة عن أهل كانم وملكهم ،وقد أكدت كلها بأنهم مسلمون ، وسلطانهم من بيت قديم في الإسلام وأن من أهل البلاد من أخذ قسطا من التعليم ، ونظر من الأدب نظرة النجوم فقال إني سقيم ، فلا يزال يداوي عليل فهمه ، ويداوي جامع علمه ،حتى تشرق عليه أشعتها ، ويطرز بديباجة أمتعتها "[٧]" .

وقد أشار بن بطوطة في رحلته إلى أن بلاد كانم أهلها مسلمون ولهم ملك اسمه إدريس لا يظهر للناس ولا يكلمهم إلا من وراء حجاب "[٨]" ،

ورغم أن تاريخ انتشار الحضارة الإسلامية حول بحيرة شاد هو كما قرره الباحثون يرجع إلى القرن الأول الهجري السابع الميلادي ، إلا أن هناك نظرية شائعة تقول بانتشارها في القرن الحادي عشر ، وهذه النظرية معتمدة على معلومات عن ازدهار الحضارة الإسلامية في هذه المنطقة ،

وبشكل خاص عندما أعلن ملك البلاد "حمي جمعة عام ١٠٨٥ م" أن الإسلام هو دين الدولة الرسمي في مملكة كانم العظيمة التي كانت تضم مناطق شمال وشرق بحيرة شاد وكانت تشرف كذلك على المنطقة الواقعة غرب البحيرة .

وفي الواقع أن نظرية انتشار الحضارة الإسلامية إلى بحيرة شاد في القرن الحادي عشر بالإضافة إلى الاعتبارات السابقة ترجع إلى الاعتماد على المصادر الغربية "بالمر ، ديفيد سن . . الخ" ، إلا أن كاتبا غربيا هو "دنيس بولم" في كتابه الحضارات الأفريقية يطعن في هذه النظرية فيقول : "يبد أننا نجهل كل شيء عن هذه المنطقة حتى نهاية القرن الحادي عشر ، عندما قام أحد حكام " "تيبو" و"تيدا" نسبة إلى تيبستي ، ونشر سلطته إلى منطقة الكوار وتبستي والبورنو" "[٩]" .

ولكن في الوقت الحاضر توفرت المعلومات عن تاريخ انتشار الحضارة الإسلامية في التاريخ السابق حتى لدى الكتاب الغربيين "أشرت إلى بعضهم في بداية البحث" ، وتأكدت نظرية انتشار الحضارة الإسلامية في القرن السابع الميلادي الأول الهجري .

ومما تجدر الإشارة إليه أن الحضارة الإسلامية ازدهرت بشكل واضح في القرن الحادي عشر حينما صار الإسلام دين الدولة الكانمية الرسمية ، فقام بعض الملوك بجهود عظيمة لتدعيم الحضارة الإسلامية ، خاصة مساعيهم الجادة لتطبيق الشريعة الإسلامية واتصالهم بمراكز هامة للحضارة الإسلامية في كل من القيروان والقاهرة وفاس ، وأعطى هؤلاء الملوك مكانة كبيرة للعلم والعلماء فحضروا هم بأنفسهم مجالس العلم ، وذكروا في المحارم أو المراسم التي كتبوها في القرن الحادي عشر كيفية تلقيهم للعلم ، والعلماء الذين علموهم أصول الدين الإسلامي وما أعطوه من امتيازات لهؤلاء العلماء "[١٠]" ، وأدى هذا الدعم الذي قدمه ملوك كانم إلى انتشار الحضارة الإسلامي في جميع الأقاليم حول بحيرة شاد ، مما استدعى إقامة ممالك إسلامية مثل مملكة باقرمي ، التي اتخذت من ماسينيا عاصمة لها ، وازدهر فيها الإسلام والثقافة الإسلامية خصوصا في القرن الثالث عشر

الميلادي، وهي في أغلب فتراتها تتبع لمملكة كانم الإسلامية "١١" وتكونت مملكة وداي التي وصلها الإسلام قبل ذلك، إلا أن التنجر الذين حكموا المنطقة لم يعتنوا بنشر الإسلام فجاء جماعة من الجوامعة وغيرهم تعرف باسم القمر بقيادة زعيمهم وداعة الذي ظل مدة من الزمن في طاعة ملوك التنجر واستطاع حفيده عبد الكريم أن يقضي على حكم التنجر سنة ١٦١١م وأن يؤسس دولة أو مملكة إسلامية عرفت باسم وداي نسبة إلى جده وداعة بدلا من دار مايا كما كانت تعرف من قبل "١٢".

وتعرف أراضي دار وداي كذلك بدار صليح ذلك الرجل الصالح الذي جاء إلى جماعة أبو سنون - ملقا، ونشر الإسلام بين أفراد قبيلة أبو سنون، ثم جعلوه سلطانا عليهم، واستطاع بواسطتهم أن ينشر الإسلام في وداي فاعتنقته قبائل منها : ملقا ومدبا ومدلا، وارتبطت جماعة السلطان صليح بهذه القبائل الأربع برباط المصاهرة، ومنها جميعا نشأت الأسرة الحاكمة في وادي إلى اليوم "١٣".

ويؤكد مخطوط محلي أن الحكم في دار وداي جاء إلى المسلمين منذ أن حكم عرب البرقد وهم الأسرة التاسعة في سلسلة الأسر التي حكمت هذه المنطقة، ثم وصل الحكم إلى جماعات بني هلبة بن مالك بن قيس، ثم حكمت قبائل الزغاوة، وكان اسم ملكهم برقو، وأصبح لهذا الاسم شهرة من شمال أفريقيا، وأخيرا جاء حكم عبد الكريم بن جامع ومن معه من شيوخ الإسلام الذين استمرت ذريتهم تحكم إلى اليوم في مملكة وداي "١٤". والخلاصة أن تاريخ وصول الإسلام إلى بحيرة شاد يرجع إلى القرن السابع الميلادي الأول الهجري، ولكن نظرا للانتشار السلمي والطبيعي للحضارة الإسلامية في هذه المنطقة، فإن الإسلام لم يزدهر ويطبق بشكل علني إلا في القرن الحادي عشر، وابتداء من هذا التاريخ أخذت الدولة الكانمية نفسها دور المبشر والداعي إلى الإسلام فانتشر في مناطق واسعة في البلاد حيث شكل روافد هامة مثل مملكة باقرمي الإسلامية، ومملكة لوجون الإسلامية، ومملكة البلالا الإسلامية، ومملكة وداي الإسلامية بالإضافة إلى سلطنات صغيرة تتبع هذه الممالك حول بحيرة شاد.

طبيعة انتشار الحضارة الإسلامية حول بحيرة تشاد :

تشير المصادر العلمية إلى أن الحضارة الإسلامية انتشرت إلى أفريقيا وراء الصحراء الكبرى عامة ، بوسيلتي التنبي الحر والإقناع ، والدليل على ذلك أن انتشارها تطلب فترة طويلة من الزمن ، فالصورة السلمية لانتشار الحضارة الإسلامية هي التي جعلتها تتسرب إلى قطاعات واسعة من الأرض الأفريقية وفي فترات زمنية طويلة ولكنها متتالية ومتكررة وثابتة "١٥" .

يقول السير "توماس أرنولد" في كتابه الدعوة إلى الإسلام : "إن الأساليب السلمية كانت الطابع الغالب على حركة نشر الدعوة الإسلامية في القارة الأفريقية ويضيف بأن انتشار الإسلام كان بجهود فردية "رجال الدين ، التجار المسلمون ، المهاجرون المسلمون ، ورجال الطرق الصوفية . .الخ" فقد قام الإنسان المسلم بمهمة نشر دينه على عاتقه أينما حل حتى قالوا عنه "ويظهر أن الميل إلى نشر تعاليم الدعوة عند كل مسلم مهما كان محبا للدنيا ، أمر غريزي إلى حد ما" وقالوا عنه أيضا "إن المسلم داعية بطبيعته ، وهو يقوم بالدعوة بجهده وحسابه الخاصين" "١٦" .

ونفس هذه الصورة لطبيعة انتشار الحضارة الإسلامية أقربها "هوبير ديشان" حاكم المستعمرات الفرنسية في أفريقيا حتى عام ١٩٥٠م حيث يقول : "إن انتشار دعوة الإسلام في أغلب الظروف لم تقم على القسر ، وإنما قامت على الإقناع الذي كان يقوم به دعاة متفرقون لا يملكون حولا ولا طولا ، إلا إيمانهم العميق بربهم وكثيرا ما انتشر الإسلام بالتسرب السلمي البطيء من قوم إلى قوم ، وقد يسر انتشار الإسلام أنه دين الفطرة بطبيعته ، سهل التناول ، لا لبس ولا تعقيد في مبادئه ، سهل التكيف والتطبيق في مختلف الظروف" "١٧" .

وتشير الدراسات الأفريقية الحديثة إلى حقيقة اجتماعية مهمة في محاولتها لتوضيح الصورة الباهرة التي انتشرت بها الحضارة الإسلامية إلى حوض شاد ، وذلك بانطلاقهم من معطيات محلية مهمة أساسها التأكيد بأن الإسلام قد اندمج في التركيبة الدينية لأفريقيا بشكل سلس ، لأنه لم يكن يعتبر ديانة أجنبية أو غير متوافقة مع نظرة الأفارقة الدينية للعالم والتي أشرنا إليها أثناء حديثنا عن

الحياة الدينية التقليدية للجماعات حول حوض شاد قبل الإسلام، هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى فإن المجتمع المسلم – وهذا هو الأهم – لم يطلب أثناء انتشار الإسلام في مراحله الأولى، السيطرة المطلقة لأفكاره الدينية، بل كان مؤهلا للتوافق مع مختلف المعطيات العقائدية والعادات التقليدية التي لا تخالف الإسلام، هذا في أغلب الأحيان، بينما هناك علماء ونخبة من تلاميذهم تجتهد في اتباع الشريعة اتباعا صارما." [١٨] . ومن الملاحظ أن هذه الحرية التي يتيحها التفكير الإسلامي للجماعات الأفريقية للتلاؤم معه، هي نفسها الخاصية التي توجد في بعض المعتقدات الأفريقية خاصة التي ترتبط ارتباطا كبيرا بالطبيعة ومن المعروف أن الإسلام هو دين الفطرة" [١٩] .

وهذا ما أكده كاتب أفريقي أثناء حديثه عن محافظة الحضارة الإسلامية على المأثور الحي للمجتمعات الأفريقية حيث قال: "إن خصائص الذاكرة الأفريقية وطرق نقلها الشفاهي لم يغيرها دخول الإسلام الذي عم جانبا وافرا من بلدان الساحل، فحينما انتشر الإسلام لم يطمس التراث الأفريقي من تفكيره الخاص، بل إنه تلاءم مع العقل الأفريقي، كلما كان هذا العقل غير مخالف لمبادئه الأساسية وكان التوافق بينهما وثيقا إلى حد أنه صار أحيانا من الصعب أن يميز الإنسان بين أحد التراثين وبين الآخر" [٢٠] . . بل يشير هذا الكاتب في موقع آخر من بحثه إلى أن الحضارة الإسلامية كانت عونا على الحفاظ على التراث الأفريقي عن طريق إيجاد وسيلة لحفظ هذا التراث، وهي اللغة العربية، فتعلم الأفارقة للغة العربية جعلهم يشرعون في استخدام تراث الجدود بنقل الإسلام وشرحه، فقامت مدارس عظمى إسلامية شفاهية محضة، تعلم الإسلام باللغة المحلية، ماعدا القرآن والنصوص المستخدمة في أداء الصلاة، وفي كل المدارس لم تهجر المبادئ الأساسية للتراث الأفريقي، بل بالعكس، إنها استعملت وشرحت على ضوء الوحي القرآني، وذلك لأن لكلا التراثين الرؤية المقدسة نفسها للعالم، ولهما تصور مشترك للإنسان والأسرة بالإضافة إلى ذلك نجد في كلا التراثين الاهتمام عينه دائما بذكر المصادر "بالعربية إسنادا" وبعدم تغيير أقوال الشيوخ والاحترام عينه لسلسلة الإسناد التعليمية، والنظام عينه للطرق التربية "الطرق الصوفية" [٢١] .

وهذه الطبيعة السلمية لانتشار الحضارة الإسلامية جعلتها تعتمد على الدعاة والمعلمين الذين وهبوا أنفسهم لنشرها بين السكان وهؤلاء الدعاة لا يمثلون فئة مرسلة من هيئة إسلامية أو حكومة مركزية ، بل كانوا يقومون بهذا العمل بدافع الواجب الديني ، ورغبة منهم في كسب رضا المولى جل وعلا ، لذا لم تكن هناك هيئة تشرف على نشاطهم ،وكانوا يجوبون أفريقيا من الشمال إلى الجنوب ، ومن الشرق إلى الغرب ، زادهم الإيمان ورفيقهم القرآن ، وعونهم الصبر الجميل على مكابدة المخاطر وهدفهم نشر كلمة التوحيد بين تلك الأمم التي تعيش على الفطرة والصفاء "٢٢" .

وهؤلاء الدعاة كرسوا جهدهم لدعوة الناس إلى دين الإسلام وانقطعوا لتعليم الداخلين فيه قواعد الشرع ، وهؤلاء كانوا يتوغلون داخل البلاد الوعرة ويختلطون بالسكان ، ويتزوجون ممن يعتنقون هذا الدين ، ويقومون بتعليم الأطفال مبادئ العقيدة ، وهؤلاء الدعاة يتوافد إليهم الأطفال المسلمون والوثنيون على السواء طلبا لهذا العلم الجديد ، وبعد دراسة شيء من آيات القرآن الكريم يدخل كثير من الوثنيين في الإسلام ، وهذه الظاهرة لها وجودها إلى اليوم في جنوب شاد وأفريقيا الوسطى "٢٣" .

ومن هؤلاء معلمون يجوبون البلاد الأفريقية بصحبة التجار المسلمين ، فمن العادات المتواترة لدى التجار المسلمين أن يصحبوا معهم عالما أو فقيها يكون مرافقا للقافلة يؤم أفرادها ويعظهم في صلواتهم ويبصرهم بأمور دينهم خلال رحلاتهم الطويلة ، ويدعو لهم بالفلاح في تجارتهم ورفع البلاء عنهم "٢٤" .

ومن هؤلاء الدعاة من وهب نفسه لهذه الدعوة وانقطع وأوقف نفسه لهذا العمل ، فدعا الناس كبارا وصغارا إلى الدخول في هذا الدين ، وهؤلاء غالبا هم الذين أتيحت لهم الفرصة فأتقنوا اللغات المحلية وعرفوا دقائق العادات والتقاليد مما يسر لهم مهمتهم في اجتذاب الناس لهذا الدين . ومنهم من لم يقم بتلك الدعوة جهارا ولكنه كان لا يفتأ يجذب إليه الأنظار بسبب سلوكه الحسن الرتيب ، وتمسكه بالفضيلة ، وقواعد دينه وخلقه القويم وحسن معاملته ونظافته ثيابه الفضفاضة وحركته المنتظمة في القيام والركوع والسجود ، كل ذلك يجذب إليه السكان ويحببه إليهم لأنهم يرون

فيه سلوكا غير معهود عليهم ، فيكونون بذلك مهيئين نفسيا إلى تقبل هذا الدين الجديد وبالتالي حينما يدعوهم إلى الدخول في دين الإسلام يجيبون عن رغبة وطواعية وخصوصا عندما يشرح لهم الامتيازات التي يتمتع بها الداخل في هذا الدين والتي منها أنه سيكون عضوا في المجتمع الإسلامي العريض ، ويستطيع التنقل بين ذلك الوطن الفسيح ، فيجد حسن المعاملة وكرم الضيافة والعيش السعيد هذا إلى جانب ما يتحلى به المسلم من سمو عقلي وكمال خلقي ، مما يدفع الأهالي الوثنيين إلى احترام معتنق الإسلام والثقة به "[٢٥]" . ولم يكن الدعاة يمثلون فئة معينة ، بل كان منهم التاجر يتخذ من التجارة وسيلة لكسب العيش الحلال ثم يقوم بأداء رسالته ، فهو يبيع سلعة وينشر دينا وباعتباره تاجرا يستطيع الاتصال بجميع الطبقات بحكم مهنته ، وعن طريق هذا الاتصال يستطيع أن يدعو من يتوسم فيه قبول هذا الدين . ويشير أحد الكتاب إلى أن العربي المسلم على الرغم من أن مهمته التي ارتحل إليها هي التجارة ، إلا أنه كان ينشر الإسلام أينما دخل ، وحيثما حل عن طريق الاتصال والاحتكاك بسكان البلاد ، تساعده في ذلك طبيعة الإسلام التي تجعله قريبا من قلوب أهل أفريقيا ، فهو قادر على تقديم الاحتياجات الروحية التي يطلبها الأفريقي "[٢٦]" .

ابتداء من القرن الأول الهجري حمل التجار المسلمون إلى بلاد حوض شاد في ركاب تجارتهم دينا جديدا هو الإسلام ، كما حملوا عادات وتقاليد طيبة في السلوك والمعاملة ، ولم يكن هؤلاء التجار كلهم طلاب ربح ومال ، بل كان فيهم صفوة ممتازة من الفقهاء والعلماء طلبوا تجارة الدنيا والآخرة معا ، اختلطوا مع سكان القارة في الأسواق والمدن والقرى وبثوا فيهم الحضارة الإسلامية ، وسعى بعض التجار من المسلمين وراء الرزق والمستوى الأفضل من العيش ، وللحصول على موارد جديدة في تجارتهم فوصلوا إلى قلب القارة الأفريقية ، واستقر ببعضهم المقام بين أهل البلاد ، وعملوا فيما يعمل فيه السكان من زراعة ورعي وتجارة ، فكان لذلك الاختلاط أثر كبير في تحويل السكان إلى الإسلام ، وأن الكثير من أولئك التجار تزوج من تلك القبائل حتى ظهر عنصر جديد من سكان وسط أفريقيا يتقن العربية ويتحدثها بطلاقة إلى جانب اللهجات الأفريقية المحلية "[٢٧]" . وكل الوسائل السلمية لطبيعة انتشار الحضارة الإسلامية حول حوض شاد تضافرت وجعلت

الإنسان الأفريقي يقوم بأكبر عملية يختبر من خلالها مكانته داخل الحضارة الإسلامية ، إلا وهي الرحلة إلى الحج التي يمر فيها الحاج بالبلاد الإسلامية ، ويجتمع في الحج بإخوانه المسلمين من شتى بقاع الدنيا .

والأهم من ذلك أنه – غالبا – ما يتحول الحاج الأفريقي إلى داعية إلى الإسلام ، فحينما يعود الحاج الأفريقي من بيت الله الحرام ، بعد رحلة يكتسب خلالها العديد من الخبرات المادية أو الحياتية والروحية التي تضفي عليه شيئا من الهيبة حسب العادات الأفريقية المرعية ، وتعطيه درجة عالية بين قومه ، وكان غالب الحجاج الأفارقة يتأخرون في رحلة الحج ولا يعودون إلا بعد قضاء مدة طويلة ، يقضون بعضا منها في مجاورة الحرمين ، يتلقون فيها تعاليم الدين الإسلامي في حلقات العلماء ويتلقون نظام الدعوة إلى هذا الدين ، وبعضا من علوم الفقه وسيرة الرسول ﷺ ، وشيئا من التوحيد والتفسير ، فإذا صاروا قادرين على حمل الرسالة وتبليغها للناس أجازوهم ودعوا لهم بالتوفيق في نشر الإسلام في بلادهم ، فهم أقدر الناس على إقناع بني جلدتهم ومقارعة الحجة بالحجة "[٢٨]" .

ونفس الدور الذي يقوم به علماء الإسلام في الحرمين في إعداد الحجاج الأفارقة يقوم به العلماء في السودان الشرقي حيث يتلقى الحجاج الأفارقة الذين يمرون به برا العديد من الدروس والعادات والتقاليد ، خاصة فيما يتعلق باكتساب اللغة العربية والدراسات الإسلامية ، وبرجوعهم إلى مناطقهم حول حوض شاد يتولون التبشير والدعوة إلى الإسلام بلهجة وطريقة سودانية يدعمهم في ذلك إخوانهم التجار الذين وفدوا إلى هذه المناطق منذ فترات طويلة وشكلوا جالية كبيرة عرفت في التاريخ باسم "الجلابة" فهم يعتبرون الحاج الذي يتحدث اللهجة السودانية ويدعو إلى الإسلام جزءا منهم ويحيطونه برعايتهم .

ومن عادات السكان حول بحيرة شاد أنهم يكرمون الحجاج أعظم تكريم ، ويستقبلهم الملوك والسلاطين ورؤساء القبائل بالبشر والترحاب ويتبرك بهم العامة ، وإن هذا العادات ليست تاريخية بل هي واقعية إلى اليوم ، فالتاجر الذي يريد أن يكسب ثقة الناس يكثر من الحج ،

والسلطان الذي يريد أن يطاع عليه أن يسبق اسمه بلقب الحاج، ورئيس الدولة الذي يطلب تأييد الناس له أن يلقب بلقب الحاج، فلقب الحاج إلى اليوم كفيل بجعل صاحبه يحاط بهالة من الهيبة والدرجة الرفيعة .

بالإضافة إلى كل الوسائل السابقة التي ساهمت في انتشار الإسلام بصورة طبيعية وسلمية فإن الحضارة الإسلامي تحتوي على ميزات تجذب إليها الأتباع، أهمها أن الداخل في إطارها لا يحتاج إلى جهد وعناء، فإن الإنسان الأفريقي بعد نطقه بالشهادتين يصير عضوا في المجتمع الإسلامي الكبير، فالحضارة الإسلامية ناسبت جميع الجماعات المختلفة حول حوض شاد بأمزجتهم وأذواقهم المتباينة، وبعض هذه الجماعات يرى في الحضارة الإسلامية نظاما سياسيا يناسب تقاليدها فتؤمن به ويشد أزرها في كفاحها ضد عدوها، وأخرى ترى فيه نظاما اجتماعيا واقتصاديا يضمن لها حياة رغدة واستقرارا فتعتنقه تحضرا ورقيا .

وحول هذه الملاحظة يقول توماس أرنولد : ينظر الوثنيون إلى الإسلام على أنه دليل على الترقي إلى حضارة ومنزلة اجتماعية أسمى مما هم فيه، وأنه يرفع من شأن القبيلة عقليا وماديا، فالإسلام هو الدين الذي أمد السكان في أفريقيا بالعزة والكرامة والاعتماد على النفس، واحترام الذات عكس الأديان الأخرى فبينما نرى الكنيسة المسيحية لا تساوي بين أتباعها من الأفريقيين وأتباعها من الأوربيين نجد الإسلام قد آخى بين سائر الأجناس، وكفل لأتباعه الحرية والأمان حتى أصبح الأفريقيون ينظرون للإسلام على أنه دين السود، وإلى المسيحية على أنها دين البيض، لذا وجد الإسلام إقبالا عظيما بين الأمم الأفريقية "[٢٩]" . فالحضارة الإسلامية اكتسبها الناس في حوض شاد عن طريق الإقناع بوسائل بسيطة تمثلت فيما يقوم به العلماء والدعاة من توضيح لأسس الحضارة الإسلامية، وما قام به التجار المسلمون من دعم تطبيقي لقواعد الحضارة الإسلامية في المسلك الاقتصادي ودعمهم للعلماء والدعاة، ودعم كل هذه الوسائل الأفريقي الحاج الذي إذا رجع إلى بلاده فهو يقوم بدور المبلغ عن مدى تسامح الحضارة الإسلامية، ومدى اتساع أراضي أتباع الدين الإسلامي، فيقوم بتبليغ ما تعلمه من تجارب عملية علمية إلى أهله وكل ذلك كان في إطار عملية

شاملة كانت كامنة في طبيعة الدين الإسلامي نفسه الذين هو أساس الحضارة الإسلامية وهو البساطة واليسر فيه ، فالأفريقي بطبيعته يكره التعقيد في جميع الأمور ، وينحو طبيعيا نحو البساطة التي هي سمة أصيلة في تعاليم الإسلام ، فالإنسان ينضم إلى حظيرة الحضارة الإسلامية بمجرد نطقه الشهادتين ثم يستمر في تشرب مكونات الحضارة الإسلامية بالتدرج وبالإقناع الحر .

تأثيرات الحضارة الإسلامية على الحياة الاجتماعية حول حوض شاد :

أ/ التأثيرات السياسية :

ذكرت في فقرة سابقة أن الحياة الاجتماعية لسكان حوض شاد كانت تقوم على العلاقات القرابية ثم المكانية بحيث ينتمي الأفراد إما إلى قبائلهم بشكل مباشر كما هو لدى قبائل الساو والزغاوة ، أو إلى مناطقهم الجغرافية كما نجده لدى جماعات الباقرمية والوداي والكانم ، وتقتصر العلاقات الاجتماعية عند هذه الحدود ، إلا أن الضغوط الخارجية وظروف العيش في منطقة جذب جديدة تقبل عليها المجموعات السكانية المتباينة بين وقت وآخر وما يتبع ذلك من صراع حول المراعي والآبار بل وحتى المدن والزرع ، استدعى قيام تجمعات أكبر من الناحية العددية وهنا ظهرت الضرورة إلى قبول الآخرين سواء أكانوا قبائل أخرى أم مجموعات مكانية، وهذا ما أدى إلى ظهور التجمعات التحالفية التي يقودها سياسيا أحد ممثلي القبائل أو التجمعات المكانية ، وإن كان الأمر غالبا ما يميل إلى الجماعة الأقوى عسكريا وعدديا وهذا ما كان يخلق صراعات اجتماعية وسياسية تجعل من هذه الجماعات عرضة للصراعات المستمرة .

وقد أدى اعتناق هذه الجماعات للإسلام إلى ظهور نمط جديد من النظام السياسي ، يتجاوز من الناحية الاجتماعية العلاقات القبلية والمكانية والعلاقات التحالفية ويقيم بديل عنها علاقات سياسية أوسع ، ونظرا للطبيعة السلمية لانتشار الحضارة الإسلامية في منطقة حوض شاد ، فإنها لم تستبعد نهائيا الأنظمة الاجتماعية للسكان بل سعت بالتدرج إلى إحداث تغييرات تدريجية فيها وفي النظام السياسي ثم قبول التركيبة القبلية السابقة للإسلام وفي الغالب يتم ذلك بجهد الدعاة إلى

أن يدخل رئيس القبيلة في الإسلام وعندها يكون تسرب الحياة السياسية الإسلامية من خلاله إلى أعضاء القبيلة الذين يمكن إقامة علاقات معهم وإضافتهم إلى سلطنة إسلامية مجاورة أو تكوين سلطنة إسلامية جديدة تكون هذه القبيلة نواتها ، ولكن للدخول في هذه السلطنة الإسلامية لا يكون تبعا - بالكامل - للتقاليد القبلية أو التحالفية السابقة ،بل استعاض عنها بخبرات وتعاليم الإسلام ، وهذا ما سمح للسلطنات الإسلامية التي قامت حول حوض شاد ، أن تقيم علاقات مع باقي الأقاليم الإسلامية باعتبارها جزءا لا يتجزأ من ديار الإسلام ، وهذا أمر كان من المستحيل التفكير فيه قبل انتشار الحضارة الإسلامية إلى هذه المناطق نظرا لسيطرة العلاقات القرابية القبلية الضيقة على عقلية الإنسان الإفريقي "٣٠" .

وهذا ما جعل رودني يشير إن إلى الدين الإسلامي قد لعب دورا مهما في مساعدة هذه السلطنات الأفريقية في إقامة دول أو إمبراطوريات تقوم على إدارة ونظم إسلامية حديثة ، بل أن الدين الإسلامي - حسب رأيه - هو العامل الوحيد الذي أفضى إلى تجاوز التنظيم السياسي البسيط للمجتمعات العشائرية ، فقد ارتبط الإسلام بتشييد مبان ضخمة في هذه المنطقة ليقام فيها الحكم ، وذلك يعود إلى الانتماء إلى مؤسسات دينية عالمية قوية وفرت للشريحة الحاكمة الجديدة ، والمسلمة في أي سلطنة أو إمبراطورية في أفريقيا بميزات عديدة ، أهمها الأمير المسلم الأفريقي يمكنه الحصول على ثقافة رفيعة والاقتراب من عالم أوسع ، ويمكنه أن يتعاون مع حرفيين وتجار يعتنقون الدين الإسلامي ، كما أن الفئات الحاكمة استخدمت إداريين ورجال يتمتعون بثقافات عالية ، وكان باستطاعتهم السفر إلى بعض أنحاء العالم مثل الحج إلى مكة ، هذا بالإضافة إلى أن الإسلام يوسع من إطار الحاكم الأفريقي ويقوم بدور في تعبئة المجتمعات المحلية التي كانت في طور الاندماج في دولة "٣١" .

ويظهر التأثير السياسي للحضارة الإسلامية في حياة شعوب حوض شاد بشكل واضح في أنها أمدها بمبادئ التنظيم السياسي في الحكم فنقلتها من الحكم القبلي إلى الحكم الشورى "٣٢" .

وهذا التغير نجده لدى جماعات الساو التي انصهرت مع جماعات من البربر والعرب والتبو والكانمبو في تجمع مشترك بقيادة جماعات من الأسر السيفية الذين أنشئوا وقادوا دولة كانم أو إمبراطورية كانم الإسلامية ، وظل الحكم في هذه الإمبراطورية طيلة خمسة قرون لدى الأسر السيفية وذلك بمساعدة مجلس الشورى الذي قد يضم أعضاء من خارج الأسرة الحاكمة ، وبشكل عام إذا استثنينا بعض الصراعات الاجتماعية أو السياسية التي كان يشكلها تجمع البلالة في الفترة لهذه الإمبراطورية فإننا يمكن أن نقول أن الإسلام قد ساهم في تكوين إمبراطورية قوية حصل فيها استقرار سياسي طويل المدى إذا ما قيس بالتغيرات السياسية والصراعات المستمرة التي كانت تعيشها هذه المنطقة وما تلاها من حروب واضطراب أدى في النهاية إلى ابتعاد جماعات الزغاوة من المسرح السياسي في كانم وانزوائهم إلى المنطقة الجغرافية المنعزلة التي اشتهروا بالعيش فيها أخيرا .

ويذكر الكاتب أن الجماعات الباقرمية جنوب البحيرة هم من أكثر الجماعات ابتعادا في السابق عن النظام السياسي المستقر ، فالناس عندهم تقوم حياتهم على القبلية ، والملك الصغير ورئيس القبيلة يتمتع بسلطات على مجموعته تفوق أي سلطان آخر ، ولكن هذا النوع من العلاقات الضيقة كان السبب الرئيسي لثورة عبد الله عام ١٥٦٥ – ١٦٠٨ م على إخوانه ملوك باقرمية بهدف تطبيق الإسلام ، باعتباره المخرج الوحيد من الوضع الاجتماعي الذي كانت تعيش فيه الأسر الحاكمة في باقرمية ، فقد سبقته محاولات كثيرة قام به العلماء وبعض الجماعات العربية التي مهدت السبيل إلى نجاح هذه الثورة .

وقد أخذ الملك عبد الله الكثير من أسس حكمه من سلطنة كانم التي كانت مزدهرة في فترته ، فحاول تجاوز العلاقات القرابية ، وقبل في السلطة السياسية جميع سكان المنطقة خاصة الجماعات العربية التي رحبت باستيلائه على السلطة والتغييرات التي أجراها على النمط السياسي للملكة حيث اعتبرت المواطنة من حق كل مسلم يعيش داخل حدود السلطنة ، وسمح

الملك للعلماء بحرية العمل من أجل الدعوة إلى الإسلام فهاجر إليه علماء من مملكة كانم، وكانت لهم كلمتهم في تسيير الأمور السياسية التي كانت حكرا على قبيلة واحدة هي قبيلة الملك السابق.

وتعرف جماعات الوداي بالنظام التحالفي القبلي منذ فترة طويلة قبل الإسلام، حيث تتجمع قبائل مثل ملقا ومدلا ومدبا وأبوسنون في تحالف سياسي، وصل الشيخ صليح ووجده قائما، ولكن بمجرد أن انتشرت التعاليم الإسلامية بصورة واسعة حتى كانت نتيجتها ظهور تجمع سياسي من نوع آخر، حيث تجاوز الأمر التحالف القبلي الذي كان سائدا حتى أيام حكم التنجر الذي اتسم بروح التسامح والاستقرار ولكنه يفتقد إلى الروح الإسلامية مما أدى به إلى التهاون في نشر الدعوة إلى جميع القبائل، وقبل القبائل بالعضوية فيه بدون جهد يذكر في دعوتها إلى الدخول في الإسلام من ناحية ونشر التعليم وتطبيق الشريعة الإسلامية لدى القبائل المسلمة من ناحية أخرى، وهذا هو المدخل الذي استغله الداعية عبد الكريم بن جامع بن وداعة ودعا إلى تغيير السلطة السياسية في هذه المنطقة، وإقامة سلطة إسلامية تتبنى نشر الإسلام بين القبائل المجاورة ونشر العلم والثقافة وتطبيقات الإسلام لدى الجماعات المسلمة، وسمي المنطقة باسم جده وداعة "دار ودُاعة" التي كانت تعرف قبل ذلك بدار برقو أو دار مبا أو دار صليح، ولكن دار وداعة نفسها حرفت إلى وداي فيما بعد.

ولذلك فإن تأثير الحضارة الإسلامية في دار وداعة "وداي" يبدأ بالفعل من الأعمال التي قام بها السلطان عبد الكريم بن جامع، فقد أعطى السلطة الفعلية في الأقاليم والقرى للأئمة، فإمام المسجد هو المسئول عن كثير من أمور القرية، وحتى ملوك الأقاليم لا يقطعون أمر بدون استشارة الإمام، وفي العاصمة المركزية توجد جماعة كاملة باسم الأمامية تضم كبار علماء المنطقة وهي التي تؤم الناس في صلاة الجمعة في جميع الأقاليم، ورئيس جماعة الأمامية هو الذي يصلي بالسلطان أو أمير المؤمنين في وداي. وهناك

عناية كبيرة في سلطنة وداي بالمساجد مما أدى إلى تكوين جماعة في السلطة تعني بالمساجد بخلاف جماعة الأمامية وهي جماعة صاحب الجامع ، وكانت في السابق تقوم بدور المفسر للكتب الأساسية التي يدرسها العلماء في المنطقة وتدخل في صياغة الفتاوى رغم أن المبلغ الرسمي لهذه الفتاوى هو إمام السلطان أو بتعبير آخر مفتي البلاد .

ورغم أن منصب الإمام يعتبر من المناصب الهامة سياسيا في جميع السلطنات الإسلامية حول حوض شاد ، إلا أن ما يتمتع به من تأثير سياسي بقي إلى اليوم في دولة شاد الحديثة ، وفي الأقاليم مستقى في غالب الأحيان من الدور السابق الذي كان يؤديه الإمام أيام دولة عبد الكريم محدد الإسلام .

أما الجماعات العربية في حوض شاد ، فهي من أكثر الجماعات المساهمة في الأنشطة السياسية التي أحدثتها الحضارة الإسلامية ، ففي البداية تعتبر الجماعات العربية المظهر الهام لوجود الإسلام في هذه المناطق ، وبالتالي استفادت من الانفتاح الذي أحدثه ملوك هذه المناطق فاعتبروهم مواطنين محليين يشتركون معهم في الدين وبالتالي تجاوزوا المعوق الذي كان يحجز التعاون معهم في السابق ، وهذا يعني أن أغلب الجماعات العربية التي عرفت بتأثيرها السياسي في هذه المناطق تحمل معها الإسلام في رحلتها من الجزيرة العربية ، أما الجماعات العربية التي هاجرت إلى هذه المناطق قبل الإسلام فالمعلومات عن دورها السياسي محدودة إلا إذا استثنينا الجماعات العربية المنصهرة في الأسرة السيفية والبلالة وغيرهم والذين لم يعرف لهم وجود سياسي ظاهر إلا بعد وصول الحضارة الإسلامية . ولكن لا يعني أن الجماعات العربية وصلت إلى شاد لا تحمل معها النظام السياسي القبلي ، فهي لها مشائخها وقبائلها وعشائرها التي ظل سلوكها السياسي على إطارها ، وبالتالي فإن الحضارة الإسلامية قد أثرت على هذه الجماعات في الجانب السياسي مثلما أثرت على القبائل الأفريقية ، بل إن الجماعات العربية تحتاج إلى الإسلام في هذا الجانب أكثر من القبائل الأفريقية لأن الحياة البدوية التي تعيش عليها معظم الجماعات العربية حول حوض شاد

جعلتها تحافظ على النظام القبلي القديم لأطول فترة ممكنة ، ولكن الحاجة إلى تكوين كيان قوي من الناحية السياسية لدفع المخاطر الخارجية أدت بهذه الجماعات إلى الدخول والمساهمة في النمط السياسي الأوسع ، وهذا يقتضي في بعض الأحيان إلى ترك الحياة الرعوية والعيش في حاضرة السلطان ، وأدى ذلك بمرور الزمن إلى تكوين جماعات عربية حضرية أو ريفية وإن ظلت علاقتهم بالمواشي والبادية أهم ما يميزهم كجماعات عربية ، ومن المهم أن الجماعات العربية في هذه المناطق تغير نمط حياتها السياسي من التحالف القبلي إلى الدخول في السلطنات الكبيرة التي كانت قائمة حول بحيرة شاد ، وبالتالي ظهرت جماعات عربية محلية مثل جماعات العرب في كانم والعرب في وداي، والعرب في باقرمية ، رغم احتفاظهم المتميز بأصولهم العرقية التي ندر أن تحولت إلى أصول مكانية فقط .

ب/ التأثيرات الاقتصادية :

أما عن تأثيرات الحضارات الإسلامية في الجوانب الاقتصادية فإن الإسلام دائما انطبع بصلة قوية بالحياة الدنيا ، فلم يكن الدين الجديد حول حوض شاد مجرد "صراط مستقيم" يسير عليه المؤمن بثقة وأمل إلى سعادة الآخرة وجنة الخلد فحسب ، وإنما تعهد بحياة المؤمنين الدنيوية ونظم علاقاتهم ومعيشتهم الاقتصادية بنظم وقوانين دقيقة ، وكانت المجتمعات الإسلامية التي قامت حول حوض شاد منظمة تنظيما شديدا في المجال الاقتصادي "[٣٣]

ومن مساهمات الحضارة الإسلامية أنها حثت الإنسان في المجال الاقتصادي على الكسب الحلال ، فأقبل الناس حول حوض شاد على المهن الشريفة ، وابتعدوا عن الكثير من العادات الاقتصادية الهدامة مثل شرب الخمر وتجنب بعض المهن مثل الحدادة وبعض الأعمال الزراعية ، مما أثر على الاستقرار النفسي والصحي ، وساهم في إقبال الناس على أعمال الخير والقيام بالواجبات "[٣٤]" .

هذه هي التأثيرات الاقتصادية للحضارة الإسلامية على النظام الاقتصادي للسكان حول حوض شاد عامة ، أما إذا نظرنا إلى التأثيرات في أي جماعة عرقية أو مكانية على حدة فإننا إذا استثنينا جماعات الكانم والزغاوة الذي اشتهروا بأنشطة تجارية صحراوية منذ الأزمنة القديمة بالإضافة إلى الأنشطة الاقتصادية التقليدية ، فإننا نجد أن معظم جماعات حوض شاد جاء الإسلام ووجدها على أنشطة اقتصادية تقليدية مثل الجمع والالتقاط الذي كانت تقوم عليه معظم الجماعات القبلية الضيقة التي تقوم حياتها على الاكتفاء الذاتي للجماعة القبلية ولفترات محدودة ولم تعرف النشاط الاقتصادي القائم على المقايضة إلا قبل الإسلام بقليل بدليل أن بقايا هذا النظام ظلت موجودة حتى بعد الإسلام خاصة في المناطق التي لا تستعمل النقود كوسيلة لتبادل السلع بكثرة ، وقد كان استخدام النقود في هذه المنطقة أحد الآثار الأساسية للتجارة والعمليات الإدارية داخل الإمبراطوريات الإسلامية مثل كانم وبورنو ووداي وباقرمية ، وفي هذه الجماعات تجلب السلع من معظم مناطق أفريقيا والبحر الأحمر وبعض منتجات المحيط الهندي كالبخور والعطور والتوابل والمنتجات الأوربية عبر البحر الأبيض المتوسط خاصة بعض الملابس والحلى والودع ، ومن أفريقيا خاصة مالي وغانا يأتي التجار منها بالذهب والفضة وخاصة الحديد الذي يصفى من بعض أنواع الحجارة ومادة النطرون والملح الأبيض والأحمر والتمر والسمن وريش النعام والجلود والمواشي خاصة البقر والإبل والغنم والخيل، ومن الحبوب تصدر القمح والذرة والدخن والمصر ، وأهم مظهر لتطور النشاط الاقتصادي في هذه المنطقة بعد الإسلام هو الحاجة لنوع موحد من العملة ، وقد استخدم الكانم نوعا معينا من القماش كعملة للتبادل التجاري مغطاة بالذهب والفضة ، واستخدموا في فترات معينة الملح كمقياس لأسعار بعض السلع التي تعرض في السوق ، وهناك محاولات متكررة في منطقة وداي لصك عملة محلية لتحريك السوق إلا أن بعض العادات الاجتماعية حالت دون نجاح محاولات الكثير من ملوك وداي الذين رغبوا في ذلك بتحريض من التجار وبعض المتعاملين معهم لتسهيل العمليات التجارية الكبيرة التي كانت تتم بينهم ولكن باستخدام الذهب والفضة وكمقياس معياري لتحديد قيمة هذه الصفقات .

وبالإضافة إلى الجماعات التجارية ذات المنبع القرابي والمكاني ظهرت جماعات أخرى مهنية تجارية لا يجمع بين أعضائها عائليا أو مكانيا شيء في الأساس إلا مهنة التجارة، ونظر لانتشار لغة القرآن في المجتمع المسلم حول حوض شاد، فإن لغة التجارة هي اللغة العربية وليس لهذه الفئة التجارية الجديدة إلا أن تتعامل مع هذه اللغة وقد أطلق على هذه الجماعة في هذه المنطقة لفظ عام هو "الجلابة" أي الذين يجلبون البضائع من كل مكان وقد يضمون من بينهم جماعات متباينة ولكن يتميزون بأن لغتهم العامة هي اللغة العربية، وقد يسمون عربا في بعض الأحيان نظرا لعملية اللغة هذه ولكن الملاحظ على تحركاتهم واهتماماتهم أنهم فئة أو جماعة تجارية أكثر من كونهم ينتمون إلى أصل مكاني أو قرابي معين ويستدل الذين يقولون بهذا الرأي بأن هذه الفئة لا تدخل في أي صراع سياسي أو قبلي يمس أي قبيلة في هذه المنطقة أي أنهم جماعة حرفية، محايدة مثل جماعات الحداد تماما إلا أن الاختلاف بين الجماعتين الاقتصاديتين يكمن في المكانة الاجتماعية والاقتصادية لكل منهما في الجلابة عموما في شاد مكانتهم الاقتصادية عالية وغالبا ما يستغلونها الاستغلال الأمثل سياسيا فتكون لهم كلمتهم مع الأسرة الحاكمة، وقد يعملون معها في صفقات تجارية مستغلين الامتيازات التي تحققها لهم هذه العلاقات مع السلطة الحاكمة، نضيف إلى ذلك بأن لهذه الجماعة في شاد علاقات وتجمعات وتعاونيات مع نظيراتها في كل من السودان الشرقي، كانو، وليبيا، مما جعلها تكتسب مكانة اقتصادية كبيرة لوقوعها في الوسط وسيطرتها على طرق التجارة إلى شمال ووسط وغرب أفريقيا، وما يهمنا من وضعها المرتفع هذا هو دورها في نشر الإسلام في هذه المناطق فهي وإن كانت نتيجة من نتائج الإسلام في هذه المنطقة إلا أنها ساهمت كذلك في تجسيد الإسلام ونشره أينما حلت فقوافلهم لا تحمل الملح والسمن والملابس والتوابل والعطور فحسب ولكنها تحمل معها في أغلب الأحيان أحد العلماء الذي يصلي بأهل القافلة ويدعو لها بالفلاح ويعظها، ويقوم بنفسه هذا الدور في أي مكان حلت فيه القافلة، هذا بالإضافة إلى حملها للغة العربية فهي لغة التجارة بدون منازع في هذه المنطقة حتى إن أهل القافلة يعلمون من لا يتقن العربية منهم في الطريق قبل الوصول إلى الأسواق، وهذا لا يعني أنهم لا يتعلمون بعض اللهجات المحلية

لكسب ود السكان المحليين فهذه من ضروريات عملهم ولكن نظرا لتعدد اللهجات في هذه المنطقة فقد قام الأهالي وتسهيل للعمل التجاري وسرعته بتعلم اللغة المشتركة للتجارة وهي العربية فوفروا لهذه الجماعة بعض الجهد "٣٥" .

وقد شارك الجلابة في نشاطهم هذا بعض جماعات الزغاوة خاصة في السنوات الأخيرة فأنشأوا الكثير من التجمعات والجمعيات التعاونية ذات الأصل العرقي التجاري ، في البداية كانت من أجل إنتاج محاصيل معينة يمكن المتاجرة من خلافها ولكن صعوبة الزراعة في مناطقهم وظروف التصحر وعدم الاستقرار في مناطقهم الأصلية جعلهم يتجهون نحو التجارة التعاونية وقد وصفوها بأنها تقوم على أن يوزع الغني منهم أمواله على أكبر عدد من أفراد القبيلة ،على أن يرجعوا له أمواله في فترة معينة ورغم أنه لا ينصحون فيما إذا كانت هذه العملية تتضمن أرباح أم لا ، إلا أن الملاحظ أنه تحمل شيئا منها وإن كان قليلا ، والأهم هو أن يعترف الشخص المقترض بفضل الذي أقرضه ويتحدث بذلك في الاجتماعات العامة والمجالس الشعبية كشيء من رد الجميل . وهذا يكسب التاجر الكبير مكانة اجتماعية كبيرة قد تصل في بعض الأحيان إلى أن يتغنى بأفضاله في الأعياد الرسمية وهذا أقصى ما يسعى إليه أغلبهم ، إن هذه السلسة من الخدمات التجارية قد خلقت لدى جماعات الزغاوة صلات وعلاقات مع جماعات غير قرابية ، وفي نفس الوقت يعتبر فيه نشاطهم الاقتصادي هذا نتيجة لانتشار الحضارة الإسلامية ، فهم بدورهم ساهموا من خلال عملهم التجاري على تقوية دينهم بل إن بعض التجار الذين استفادوا من العملية السابقة سعى بكل جهده أن يعلم نفسه وأولاده ، فأرسلوا أولادهم إلى الأزهر وبعض المعاهد الإسلامية واستمروا على نفس المنوال في تعليم أولادهم الفرنسية في الفترات الأخيرة ، وأخيرا وظفت جماعات الزغاوة خبرتها الاقتصادية في الجوانب السياسية ، فخلقوا علاقات مع القوى السياسية الفاعلة فلا تجد تاجر منهم له وزنه التجاري لا يربط ذلك بنشاط سياسي يدعم به وضعه التجاري ، والخلاصة أن الإسلام لعب دور كبير في تغيير النمط الاقتصادي للحياة الاجتماعية حول بحيرة شاد في جميع جوانبه الزراعية والتجارية وقد شمل ذلك جميع الجماعات العرقية والمكانية والمهنية في شاد .

الآثار الدينية :

طبيعة المعتقدات الدينية التي كانت سائدة حول حوض شاد كانت تقوم على المعتقدات المرتبطة بالطبيعة ، وهناك اعتقاد بآلهة ما ، والحيوانات المقدسة وعبادة الأشجار الكبيرة والأحجار المنحوتة ، ثم ظهرت المعتقدات المتعلقة بعبادة الأسلاف ، وممثلي الآلهة من البشر أو مندوبي الإله الأعلى فهناك مندوب عنه مختص بالسمك ، وآخر مختص بالمطر ، وصاحب الأرض الذي لا يخصب الزرع إلا بإذنه ، وهذا يعني أن الأصل في طبيعة المعتقدات الدينية التي كانت سائدة قبل الإسلام أنه مرتبطة بالطبيعة الأرضية ولم يظهر بأن لها علاقة بمعتقدات سماوية أو تشريعات تؤثر في نمط الحياة أو العلاقات الاجتماعية التي كانت سائدة داخل الإطار القبلي البسيط . أما ما بقي من هذه المعتقدات فإنه يظهر في أشكال متعددة أشار الباحثين إلى بعضها مثل اعتقاد أهل كانم في علبة "موني" وتأثيره في انتصاراتهم الحربية والتي أبطل مفعولها السلطان دونمة دبلامي عندما فتح العلبة فلم يجدوا فيها غير الفراء التي كانت تغطي بها كل عام ، وبعض المعتقدات حول الأشجار الكبيرة باعتبارها مسكن للشياطين .

أما ما حصل من تغيير في المعتقدات التقليدية حول حوض شاد فهذا ما سنتناوله في الفقرة القادمة فقد كان من نتائج الاتصال السلمي والطبيعي بين الحضارة الإسلامية وشعوب بحيرة شاد أن ظهرت تغيرات كبيرة في مجال المعتقدات حيث تغير السكان الذين اعتنقوا الإسلام من الديانات التقليدية - التي ذكرنا الكثير منها أثناء حديثنا عن الديانات حول حوض شاد - إلى التعبد بشعائر الإسلام .

وقد أشار الكتاب الأفارقة في كتاباتهم إلى أن أهل حوض شاد تمسكوا بالقرآن الكريم وشريعته وحافظوا على ذلك بشكل فاقوا فيه غيرهم من سكان غرب أفريقيا ، وخاصة من حيث حفظهم للقرآن وارتفاع تعليمهم الديني وهذه العملية العقائدية يرى الإمام محمد بلو في كتابه "إنفاق الميسور" أنها ساهمت في تهذيب العادات القائمة ، وساعدت على نشر العلوم الإسلامية مثل

الفقه والحديث وتفسير القرآن ، وعلوم اللغة العربية من نحو وصرف وبلاغة وشعر ، ووظفت جميع هذه العلوم لصقل الروح الدينية وتنقيتها من الشوائب القديمة .

وعملية تغيير المعتقدات الدينية ساهمت بدورها في التحول الاجتماعي في نظام الاتصالات الاجتماعية ، فدخول الجماعات حول حوض شاد في الإسلام عمل على السماح لها بالاتصال بأرقى الحضارات المعاصرة وهي الحضارة الإسلامية يومئذ ، وهذه العملية مهمة جدا في تفكير الإنسان الأفريقي ، حيث أشرنا أثناء حديثنا عن الحياة الاجتماعية لهؤلاء السكان قبل الإسلام إلى أن البناء الاجتماعي لجماعتهم القديمة قائم على علاقات ذات صيغة عائلية ضيقة لا تتجاوز القبلية أو القرية الواحدة ، فجاءت الحضارة الإسلامية وسعت إلى توسيع النظام القبلي وأتاحت الفرصة لتآخي القبائل في ظل وحدة العقيدة الواحدة .

وهذا دليل على أن اعتناق الإسلام لا يتوقف عند الاعتقاد الديني أو المعتقدات فقط ، بل يهدف إلى إقامة نظام ، اجتماعي جديد كلية ، ويفتح مجال الاتصالات ، خاصة الدور الذي يقوم به الدعاة في إعلانهم لحركات اجتماعية تاريخية بل وثورية في كل مجالات الحياة ، خاصة في الضبط الاجتماعي والأعمال المؤسسية التي تهدف إلى تنظيم حياة المؤمنين بالدين الإسلامي "[٣٦]" .

وقد أشار الكثير من الكتاب إلى أن أثر المعتقدات الدينية الإسلامية حول حوض شاد على السكان كبير لدرجة أنه من الصعب التمييز بين ما هو ديني وما هو اجتماعي في المجتمع الشادي المعاصر "[٣٧]" .

ونقر إشارة "هرسكوفتش" السابقة بأن أهم تغيير تحدثه القيم الدينية يتمثل في الجهود التي يقوم الدعاة في إعلانهم لحركات اجتماعية تهدف في المقام الأول إلى إحداث تغييرات جوهرية في العلاقات الاجتماعية داخل الجماعات التي تنتمي إليها في أفريقيا .

وقد حدثت هذه العملية بالنسبة لمعظم الجماعات التي تحدثنا عنها حول حوض شاد فقد أحدثت الثورة الاجتماعية التي قادها السلطان دونمة دبلامي في كانم في نظام المعتقدات أثرها

الكبير في دولة كانم ،وقد شملت ثورته جميع العلاقات داخل كانم ،وبدأ بمعتقد "موني" تلك المخلاة التي وجد أن أهل الحكم في كانم يجدد دون غطاءها الجلدي كل عام تقريبا ويستعينون بها في حروبهم عن طريق الإعتقاد بأنها تجلب النصر لهم ، فوجد دبلامي أن ذلك يخالف التوكل على الله ويؤدي إلى الاعتقاد في قوى غيبية غير الله تنصر في الحرب ، وخوفا مه إلى أن ينصرف الناس إلى الاعتقاد فيها وينسون الاعتقاد في الله سعى إلى فتح هذه المخلاة رغم خوف كبار القوم من فعله هذا ، ولكنه توكل على الله وفتح المخلاة فما وجد فيها غير الجلود المغطاة بها ،وتركها في العراء لكي يراها جميع سكان كانم ليتأكدوا من زيف اعتقادهم السابق فيها وأنها لا تضر ولا تنفع .

وما قام به السلطان دونمة دبلامي في هذه العملية فتح أمامه الطريق ليجري العديد من التعديلات في سلطنة كانم ويعيد للعلماء مكانتهم في السلطة السياسية والاعتبارات الاجتماعية والاقتصادية التي تمثلت في منحهم امتيازات اقتصادية خاصة بمراسيم سلطانية سميت "المحارم"[٣٨] . وهي امتيازات تعطي صاحبها الإعفاء من الضرائب في أمواله الثابتة والمنقولة والدخول إلى السطان في أغلب الأوقات وقبول بعض الشفاعات وكلها امتيازات تقوي من مكانة العلماء في السلطنة[٣٩] .

وفي الباقرمية يمكن ذكر الدور الذي قام به العالم الوالي ذلك الرجل الذي قاد ثورة اجتماعية ضد العادات والمعتقدات المنافية للشرع ، وقد استقبل المواطنون ثورته بالقبول والرضى وساندوه فيها بكل ما يملكون وتحملوا من أجلها الكثير من المتاعب ، بينما وقف في طريق ثورته أو ضدها السلطان أحمد سلطان باقرمية الذي يعتبر من أسوأ سلاطين باقرمية من حيث الفجور وتجاوز المعتقدات الإسلامية فسعى الوالي إلى الوقوف في وجهه بتوضيح الشرع ، وإبعاد الرعية عن تقليد السلطان في المعتقدات والممارسات اللاشرعية وعذب وصبر إلى أن استجاب الله دعاءه بالغزو الذي قام به سلطان وداي صابون على السلطان أحمد سلطان باقرمية الذي استقبله الشيخ الوالي على رأس سكان باقرمية مهنئا .

أما في سلطنة وداي فإن الحركة التي قادها الشيخ عبد الحق السنوسي الترجمي لتغيير العلاقات الاجتماعية من خلال المعتقدات الدينية الشائعة يشار إليها بالبنان في هذا الموضع ، فنظرا لقيام سلطنة وداي أصلا على الدين الإسلامي فإن افضل وسيلة لإصلاح شأنها – حسب رأي الترجمي – هو الرجوع إلى المعتقدات الدينية نفسها متمثلة في اجتهادات السادة المالكية بالإضافة إلى تاريخ الاجتماع الإسلامي . ولهذا ركزت حركة الترجمي على المخزون الديني وحركت الجماعات الإسلامية في إطاره وهي الجماعات المتمثلة في الأمامية وصاحب الجامع وجماعات القضاة ، وأخيرا الجماعات ذات الثقافة الإسلامية الخارجية التي تشكل منها حركة الشيخ الترجمي وهذه الجماعة الأخيرة تضم أعضاء من جميع الجماعات التقليدية السابقة ولكن ما يميزها هو ثقافتها الخارجية وتبنيها للعمل الاجتماعي الذي يقوم به حملة الثقافة الخارجية وبالتالي فهي الجماعة الوحيدة الدينية في دار وداي التي ليست وراثية بينما جميع الجماعات الدينية الأخرى وراثية ، ومن مميزاتها أيضا أنها ليست رسمية فالسلطان لا يعترف بالجماعات الدينية إلا من خلال قنوات الجماعات الدينية سابقة الذكر ، ولكن من الملاحظ أن لكل عضو من الجماعة الجديدة الحق بأن يدلي برأيه من خلال جماعته التقليدية وحضور الجلسات الرسمية لهذه الجماعات بحضرة السلطان أو بدونه في حيهم المعروف بحي الفقراء أو الفقهاء ، والذي يضم صفوة العلماء في المملكة ويتميزون بامتيازات كبيرة في السلطة السياسية والاقتصادية والاجتماعية .

إلا أنه من الأسئلة الجوهرية التي تواجه الباحث سؤال : لماذا خرج عبد الحق الترجمي من جماعته – التقليدية – صاحب الجامع ، وترك الجاه والمال والحماية والمكانة الاجتماعية والسياسية التي يوفرها له وجوده ضمن أعضائها ؟

وللإجابة على هذا السؤال يمكن ذكر أثر الثقافة والاتجاهات التي عاشها الترجمي في مصر ، وكذلك التصرفات اللاعقلانية التي تظهر من بعض العلماء بل وحتى من السلطان نفسه مثل الاستعانة بالسحر وغير ذلك من الأدوات الغيبية البعيدة عن تعاليم الإسلام ، أضف إلى ذلك المواقف غير العلمية تجاه بعض القضايا السياسية مثل تنصيب السلطان

وشرط أن يكون وراثيا وسمل عيون كل أخوته الذكور سدا لطمعهم بأن يكونوا ملوكا في المستقبل أو أن يشكلوا اضطرابات في السلطنة .

كل هذه الإجابات قد تكون صحيحة ولكنها لا تفسر بالكامل هذه الثورة الكبيرة التي قادها الترجمي في وداي ضد كل من يقف في طريق تطبيقه لأفكاره الإصلاحية من السلطان يوسف إلى دود مرة إلى السلطان أصيل إلى الحكم الفرنسي ، ولكني أرى أن ذلك يرجع إلى خاصية قيادية في شخصية الترجمي هذه نلمسها في شخصيته منذ نشأته الأولى فهو يتميز بحمله لملكات عقلية كبيرة مشبعة بذكاء حاد وميل شديد لاستخدام هذه الاستعدادات على أرض الواقع ، وهذه الروح الملهمة التي يحملها تجعله في مصاف القيادات الكارزمية التي أشار إليها ماكس فيبر ، فالترجمي شخص له رسالة دائما ، ويشعر دائما بأن الحق معه في الظاهر وهو عنوان الباطن ، وهو يبشر بأفكاره بدون تسلط بالاستعانة بالمخزون الثقافي الإسلامي ، وقد يكون مما ساعده على توضيح فكره وسيادة قيادته أن القيم التقليدية للجماعات الدينية في وداي كانت في فترته مهتزة وأوشكت على الانفجار ، فمن الناحية السياسية خاضت سلطنة وداي العديد من الحروب الداخلية التي أنهكت قواها ومن الخارج تتهددها فرنسا من الغرب والإنجليز من الشرق ، بينما العلماء في كل تجمعاتهم الدينية بدأ يظهر فيهم التأثر بهذه الأحداث فابتعد بهذه الأحداث فابتعد الناس عن العمل وبدأوا يبحثون عن قوة غيبية أخرى متمثلة في السحر والمندل وغيره من أساليب الخداع ليلهوا الناس عن أمور دينهم ودنياهم ،وفي مثل هذه المرحلة من تدهور الوضع الديني ظهرت حركة الشيخ عبد الحق الترجمي بأفكار ترى في السلطة حق مشاع لجميع الأفراد حسب الكفاءة وليست بالوراثة وتنكر سمل عيون الأمراء وتناقش العلاقات الخارجية بشكل عقلاني – على الأقل – مثل وجهة نظره تجاه التعامل مع وصول طلائع المهدية إلى وداي وكذلك رأيه في طلب النصارى للهدنة وغير ذلك من الآراء التي تقوم على الأدلة الدينية النقلية والعقلية الظاهرة وتستبعد الأدلة الباطنية إلا بالدليل العقلي والنقلي "٤٠" .

والخلاصة أن تأثير الحضارة الإسلامية على الحياة الاجتماعية بجوانبها السياسية والاقتصادية والدينية ظلت بارزة منذ وصول الحضارة الإسلامية إلى حوض شاد ، وقد ظهر هذا التأثير في الجماعات المختلفة خاصة جماعات الكانم والباقرمية والوداي وتجسد ذلك في قيام بعض الدعاة في هذه المنطقة بقيادة حركات اجتماعية .

عوامل تدعيم الحضارة الإسلامية حول بحيرة شاد :

هناك عوامل عديدة ساعدت على تدعيم الحضارة الإسلامية حول حوض بحيرة شاد بعد انتشارها إليه في القرن السابع الميلادي ، ونظرا لطبيعة انتشار الحضارة الإسلامية السلمية والطبيعية فقد احتاجت إلى عوامل من نفس هذه الطبيعة مثل الانتشار البطيء والتبني الحر بالإقناع ، وبهذه التأثيرات خلقت الحضارة الإسلامية جذورا لها في حوض شاد ،ولكن في القرن الحادي عشر وبالتحديد عام ١٠٨٥ م وجدت الحضارة الإسلامية عوامل مدعمة لوجودها تمثلت في تبني سلاطين البلاد لها باعتبارها المظهر الأساسي للبلاد وإظهارهم للإسلام باعتباره دين الدولة والأهم من ذلك تحملهم حماية تعاليم الإسلام والدفاع عنها وتطبيقها على أرض الواقع ، تبع ذلك إعطاء مكانة عالية للعلم والعلماء فمنحوهم الامتيازات التي تليق بمكانتهم ووضعوهم في الصف الأول في تسيير الممالك الإسلامية التي قامت حول حوض شاد ، وهذه المكانة التي أعطيت للعلماء دعمت ظهور عامل آخر من عوامل تدعيم الحضارة الإسلامية في هذه المنطقة وهو وجود نظام تعليمي إسلامي متقن واكب مقتضيات الأزمنة المختلفة ، وتطورت علوم الدين مثل : الفقه والتوحيد وتفسير القرآن ، وحفظ القرآن ، وعلوم العربية مثل : النحو والصرف والبلاغة والعروض والإنشاء ، ومقارنة الآثار العلمية التي خلفوها بمثيلاتها في البلاد الإسلامية والعربية .

أ/ بساطة الدين الإسلامي :

من العوامل التي ساعدت على تدعيم الحضارة الإسلامية حول بحيرة شاد طبيعة الإسلام نفسها ، فالإسلام يتيح حرية في التفكير ساعدت الجماعات في وسط أفريقيا بالتلاؤم معه ، وهذه الخاصية التي توجد في طبيعة الإسلام تنطبق مع بعض المعتقدات الأفريقية خاصة التي ترتبط

ارتباطا كبيرا بالطبيعة ، ومن المعروف أن الإسلام هو دين الفطرة . فالحضارة الإسلامية بانطلاقها من معطيات طبيعية توافق طبيعة الإنسان الأفريقي ، ساعدت الإنسان الأفريقي على اكتساب خصائص الحضارة الإسلامية بسهولة ، مما دعم وضع الحضارة الإسلامية في هذه المنطقة إذا قيست بالثقافات الأخرى التي احتكت بها منطقة وسط أفريقيا .

ب / جهود الملوك والسلاطين حول بحيرة شاد من أجل تدعيم الحضارة الإسلامية :

ابتداء من الملك حمي جمعة الذي حكم في الفترة ما بين ١٠٨٥-١٠٩٧م صار للإسلام دعامة رئيسية تدعمه ، وهم الملوك والسلاطين باعتباره الدين السائد في الدولة أو دين السكان الغالب ، فأصدر هذا السلطان العديد من المراسيم التي توحي بأن الإسلام هو دين الدولة وأن ملوك كانم هم حماة هذا الدين في هذه المنطقة .

إلا أن أعظم جهد في إطار تدعيم الحضارة الإسلامية قدمه الملك "دونامة دبلامي" الذي حكم في الفترة ما بين "١٢٢١-١٢٥٩" . فجهود هذا الملك المسلم جعلت هذه البلاد تصل أقصى درجة من الرقي والتقدم ، وقام بجهود كبيرة لتوسيع إمبراطوريته الإسلامية ، فاتسعت مساحتها بدرجة كبيرة ، فبلغ مستواها الاقتصادي أعلى درجاته .

وبذل السلطان دونامة دبلامي جهودا كبيرة في نشر الإسلام وتقويته في البلاد ، كما كرس وقتا طويلا من فترة ملكه من أجل أن يرى الشعب حول بحيرة شاد يسير على النهج المستقيم . فجميع أخبار سيرته تدل على أنه بذل جهدا كبيرا لتطهير المجتمع من الرذيلة ، وحث الناس على السلوك السوي وترك البدع والمحدثات والعادات والتقاليد الوثنية "[٤١]" .

هذا على الصعيد الداخلي ، أما على الصعيد الخارجي فقد عجم الحضارة الإسلامية ببناء "رواق" بالقاهرة لنفع الواردين من مواطنيه من الطلاب والعمال والحجاج ينزلون فيه طيلة وجودهم بالقاهرة ، ووقف لتسيير هذا المنزل أموالا طائلة .

ومن جهود السلطان دونامة دبلامي من أجل تدعيم الحضارة الإسلامية تأسيسه لمدرسة ابن رشيق في القاهرة لإقامة طلبة كانم الدارسين فيها "٤٢" . ويحدثنا المقريزي عن مدرسة ابن رشيق قائلا "مدرسة ابن رشيق بخط حمام الريس من مدينة مصر ، كان الكانم لما حلوا بأرض مصر في سنة بضع وأربعين وستمائة قاصدين الحج دفعوا للقاضي علم الدين بن رشيق مالا بناها به ، ودرس بها فعرفت به ، وصار لها في بلادهم سمعة عظيمة، فكانوا يبعثون إليها في غالب السنين بالمال "٤٣" .

وفي عهد السلطان دونامة دبلامي تعززت العلاقات مع الدول الإسلامية بشمال أفريقيا ، فذكر ابن خلدون أنه في سنة ٨٥٥هـ/١٢٥٧م وصلت إلى السلطان الحفصي المستنصر هدية ملك كانم ، وهو صاحب برنو مواطنه قبلة طرابلس ، وكان فيها الزرافة ،فكان لها بتونس مشهد عظيم برز إليها الجفلي من أهل البلد حتى غص بهم الفضاء "٤٤" .

من آثار هذه الاتصالات أن السلطان دونامة دبلامي أول من تلقب بلقب أمير المؤمنين من سلاطين هذه البلاد تأسيا بالسلطان الحفصي المستنصر ، فقد ظهر هذا اللقب بعد ذلك في سلسلة ديوان السلاطين في هذه البلاد "٤٥" . ومن الإصلاحات العقائدية التي قام بها السلطان دونامة دبلامي وأشار إليها المؤرخون بشيء من الإعجاب إبطاله لاعتقادات أهل كانم "بموني" . وقد كتب ابن فرتو عن هذا الحدث قائلا : "ومن العجائب والغرائب ما سمعناه من أكابرنا في خطابهم الذي أطيب من الأعاذيب ، أنه عند قبيلة بني سيف شيئا ملفف مغطى ، فيه نصرهم في الحرب يسمى "بمنى" ولا يفتحه أحد من ملوك سيف بن ذي يزن ، ولم يزل بيدهم غير مفتوح إلى أن جاءهم عصر السلطان دونامة دبلامي فأراد السلطان المذكور كفه وفتحه ، وقال له قومه الذين كانوا معه : لا تفعل هذا وأن هذا الأمر كان في نصر كبائركم الماضين ، ولا يقدر أحد من الكفار وغيرهم أن يخالفهم ما دام هذا الشيء بيدهم ملففا مغطى إلى هذا الزمان الذي ولاك الله تعالى فيه بمنه وكرمه على المسلمين ، فأبى "الملك" وترك قبول قولهم إلى أن فك الأصل القديم " "٤٦" .

وفتح الملك متوكلا على الله "جوجو موني" ولم يجد في المخلاة التي تسمى بموني شيئا سوى هذه المخلاة وما عليها من الجلود المتنوعة الأشكال، وأمر بوضعها بحيث يراها جميع الناس ليعلموا أن "جوجو موني" هذا ما هو إلا خرافة وما هو إلا وهم مضلل، وهذا النجاح زاد من همة السلطان وعزمه الرامي إلى إزالة جميع العقائد الخرافية والعادات المنافية للإسلام "٤٧".

ومن مساهمات السلطان دونامة دبلامي في إطار الإصلاح الاجتماعي حول حوض شاد إبطاله لعادة تقديس أو عبادة الملوك التي كانت منتشرة في الكثير من المجتمعات الأفريقية ومنها بعض ممالك حوض شاد فاختفت في أيامه هذه العادة مرة واحدة، ورجع الناس لا يعبدون إلا الواحد الأحد. والغربي في الأمر استنكار إمام كابن فرتو لما فعله السلطان دونامة بلامي حيث رأى أن هذا العمل كان انتهاكا لحرمة الدين والأعراف وأنه السبب الأساسي في الاضطرابات والمتاعب العديدة التي حدثت فيعهد دونمة دبلامي إلا أن كل هذا الاستنكار بتأثير من التقاليد السائدة في البلاد منذ القدم أو لأن موني كما ذكر أحد الباحثين "ترمنهام" لم يكن على ما يحتمل سوى مصحف في علبة من الجلد "٤٨". وعادة الاستعانة بالقرآن في شكل علبة أو غيره في الحرب عملية عرفتها الحضارة الإسلامية منذ فترة طويلة، إلا أن الاعتقاد بأن هذه العلبة فقط هي التي تعين على النجاح في الحرب هي التي حاربها ونجح فيها السلطان دونمة دبلامي.

ومن الملوك حول حوض شاد الذين ساموا في تدعيم الحضارة الإسلامية الملك "إدريس ألومة" وتعتبر الآثار التي كتبها عنه إمامه أحمد بن فرتو أفضل مرجع لمعرفة جهوده، فذكر في كتابه "أخبار السلطان إدريس ألومة وغزواته" أن التحول الذي حصل في حياة السلطان ظهر في المدينة دارا بها نخيل وأسكن فيها بعض أتباعه رجاء للثواب الجزيل من المولى الجليل وبعد أن رجع إلى بلاده أخذ يدعو إلى دين الله فوفقه الله ويسر له أمره فأصلح حال أهل بلاده وزجرهم ونهاهم عن الفحشاء، ومن أعماله الإصلاحية حمل جميع الناس على الأحكام الشرعية في قضاياهم ومعاملاتهم، ومن أعماله إزالة البغي والحقد والغل والقتال بين المسلمين حتى صاروا كالإخوان المتحابين في الله "٤٩".

ولشدة تمسكه بالكتاب والسنة صرف جميع أوامره إلى العلماء والحكام وعلق بأعناقهم في كل المرام ، وكان السلطان إدريس ألومة جاريا على المنهج الواضح للكتاب والسنة وأقوال العلماء في جميع تصرفاته ، وما خرج عن الثلاثة برفضه بتاتا ، ومما يستدل به على فضل ما أحدثه في إمارته من بناء للمساجد بالطين ، وكان بناءه في الزمن السابق بالقصاص ، فهدم جميع ما بني من المساجد في بلده وبناها طينا مع علمه باليسر في الدين كما تقرر في القرآن والحديث وما قصد بذلك إلا الثواب الجزيل من المولى الجليل "٥٠" .

ومن جهود السلطان إدريس ألومة من أجل تدعيم الحضارة الإسلامية ما دبره في عصره من أمر السفينة الكبيرة لمصلحة المسلمين وتيسير جوازهم البحار "يقصد الأنهار والبحيرات الشادية" على أقرب الأوقات وأهدأ الحالات ، وذلك لما رأى أن السفينة القديمة معمولة من أصول الدوحة المنقورة التي يسقى فيها أرباب المواشي بهائمهم وإذا أراد السلطان أن يقطع البحر بجنوده فلا يمكن له ذلك إلا بمقدار يومين أو ثلاثة ولو اجتهد النوتيون والملاحون في الإخراج مبلغ جهدهم ، وفي عهد السلطان الحاج إدريس ترك تلك الأشجار وعمل السفائن الكبار فكان الناس يقطعون البحر في غاية السرعة ، مع حمل السفينة الواحدة كثيرا من النسمة "٥١" . ومن الملوك الذين يعدون بجهودهم من أجل تدعيم الحضارة الإسلامية حول بحيرة شاد الداعية عبد الكريم بن جامع الذي تعده المصادر الفرنسية المؤسس الحقيقي لمملكة وداي الإسلامية عام ١٦١٢م "٥٢" .

يذكر توماس أرنولد أن المسلمين التنجر هاجروا منذ القرن الرابع عشر من تونس إلى الجنوب واخترقوا برنو ووداي حتى وصلوا إلى دارفور ، ومملكة وداي لم تشكل المركز الرئيسي للنفوذ الإسلامي إلا بعد أن نزع الداعية الإسلامي عبد الكريم من التنجر عام ١٦١٢م "٥٣" .

وتحكي المصادر المحلية أن قصة تطور تفكير عبد الكريم الداعية في نشره الحضارة الإسلامية تبدأ من أنه ينحدر من جد يسمى صالح وصل إلى هذه البلاد ودعا إلى الإسلام جميع القبائل في منطقة أبو سنون ومدلا ومدبا وغيرهم من الجماعات وكان يدعو للإسلام في ظل حكم التنجر ، المعروف عنهم عدم اهتمامهم بنشر الإسلام .

إلا أن حفيد الداعية صالح دفعه شعوره الديني إلى قضاء بضعة سنوات في بلدة "بيدوي" وهو مكان يبعد عشرة أميال شرقي عاصمة الباقرمي، لأن بيدوي هذه منطقة كان قد سكنها الفلاني، واتخذت عائلة منهم هذه المنطقة مركزا للدعوة لنشر الإسلام على نطاق واسع، وشيخ هذه العائلة عرف باسم محمد الذي أثر في نفس عبد الكريم وزملائه، منهم زعيم المرفة والشيخ مؤمن المساليت والشيخ ديد إمام أبو شربباي والشيخ دول "ولد" بناني الجلابي، وعمل هؤلاء على التبشير بالدين الإسلامي، وانتزاع السلطان من أسرة التنجر والعمل على قيام دولة إسلامية الأسس.

وبمجرد عودة عبد الكريم إلى بلده وداي أخذ في نشر آرائه التي تهدف نحو تطبيق الشريعة الإسلامية في هذه المنطقة، واتخذ له مكانا اسمه مدبا، وهو موضع جبلي يبعد عشرة أميال شمال بلدة وارا التي كان سكن فيها، واستطاع عبد الكريم التغلب على البيت التنجر وأسس سلطنة وداي التي اتخذت اسما لها اسم جده وداعة بدلا من دار ما با كما كانت تعرف من قبل "٥٤". وقام عبد الكريم بنشاط واسع لخدمة الدعوة الإسلامية، فأسس المساجد في كل المناطق التي تدخل الإسلام، وأقام الخلاوي والمدارس القرآنية، وجعل العلماء الحكام الفعليين في كل مجالات الدولة "٥٥". وحاول جاهدا تطبيق شرع الله في الأرض واتخذ من العلماء المنفذين الحقيقيين للشريعة، مما جعل منصب الإمام في القرية والمدينة لعلية القوم من العلماء، وأمر الإمام مقدم على أمر الحاكم في كل الأمور المعروضة للبحث خاصة في أمور الدعوة الإسلامية، بل إن العلماء لهم رأيهم في تنصيب الحكام وعزلهم.

ومن خلال كل هذه الجهود أقام عبد الكريم الذي يسمى بمجدد الإسلام دولة إسلامية لها امتدادها إلى اليوم، فالأسرة الحاكمة في وداي اليوم تنتسب إليه، وتلتزم - على الأقل ظاهريا - بالنهج الإسلامي الذي استنه منذ بداية القرن السابع عشر.

وفي باقرمي يمكن ذكر جهود الملك عبد الله الذي حكم عام ١٥٦٥ إلى ١٦٠٨م فقد قام بثورة على إخوانه ملوك باقرمي بهدف تطبيق الإسلام في باقرمي ، فانتصر على أخيه "مالو" باسم الإسلام ، وسرعان ما أدخل عبد الله النظم الإسلامية وبنى المؤسسات الإسلامية للعبادة والدراسة ونشر الدعوة الإسلامية ، فاستجاب له سكان باقرمي ، فكون جيشا عظيما ، ونظم إدارة دقيقة على نمط التنظيم الذي كان متبعا في الدولة الإسلامية المجاورة له وهي مملكة كانم الإسلامية ، وظل لفترة طويلة يستوحي أكثر اتجاهاته منها ، وفي عهده امتد نفوذ باقرمي إلى كثير من المناطق المجاورة فتبعته أو دفعت له الجزية "٥٦" . ولحسن حظه كان في فترة ملك كانم الحاج إدريس ألومة الذي ذكرنا جهوده ، نحو تدعيم الحضارة الإسلامية في هذه المنطقة في فترة سابقة .

والخلاصة أن السلطان عبد الله بن مالو يرجع إليه الفضل في أنه أول ملوك باقرمي الذي أكد الإسلام وقواه ، وذلك بصورة عامة وعلنية باسم الدولة الإسلامية رغم وجود الإسلام والمسلمين في هذه المناطق منذ فترة طويلة "٥٧" .

جـ/ دور العلماء في تدعيم الحضارة الإسلامية :

من المظاهر الهامة للحضارة الإسلامية حول بحيرة شاد المكانة العالية التي يعطيها الملوك والناس عامة للعلم والعلماء باعتبارهم الطبقة المستنيرة في الأمة يرشدون الناس إلى ما فيه صلاحهم في الدنيا وفلاحهم في الآخرة ، لذا كان لهم دور كبير في المجتمع الإسلامي داخل الممالك الإسلامية في هذه المنطقة وولاهم السلاطين المناصب الهامة التي تتصل بالناحية الدينية والدنيوية .

فكانت طبقة العلماء تلي طبقة الملوك والأمراء من حيث النفوذ والتفاف الشعب حولهم ، وافتدائه بهم ، وكان نفوذ العلماء يدل على مدى قوة تمكن الإسلام من نفوس الملوك والرعية ، وكان يحظون باحترام العامة والخاصة وكان للعلماء شفاعة نافذة لدى السلاطين في الأمور التي تتعلق بسياسة الدولة ، وكان السلاطين يصحبون معهم العلماء في المعارك الحربية وذلك للتبرك بهم وطلب دعواتهم بالنصر المبين ، كذلك يصحبوهم في مقابلاتهم الرسمية .

ومن أكبر المناصب التي تولاها العلماء وكانت دعامة أساسية من أجل تطبيق الإسلام وظيفة القضاء ، فوظيفة القاضي ملازمة لقيام الدولة الإسلامية في هذه المنطقة ، بل كانت أثرا مباشرا للحضارة الإسلامية وأهمية هذه الوظيفة من أنه قبل الإسلام ، كان القضاء يتولاه الملك كسلطة عليا وإلى جواره رؤساء القبائل الذين يمارسون سلطة قضائية محدودة ، أما السلطان فكانت سلطته القضائية مطلقة ، وكان القضاء مبنيا على العادات والتقاليد الملكية ، وكانت تلك التقاليد تقضي بالصلب حتى الموت للقاتل واللص والسارق ، وتأخذ غرامة تعدل ثلث المهر المتعارف عليه من الزاني وتعطى للزوج المتضرر أو إلى أبوي الفتاة إن لم تكن متزوجة ويرهن المدين ولده عند الدائن يخدم له حتى يرد ما عليه من دين ، أما في الميراث فيرث الابن الأكبر تركة الأب المتوفى ، ولا يرث الأخوة الصغار شيئا من التركة ويرث الابن الأكبر مع التركة زوجات أبيه ، وليس للزوجات شيئا إلا ما تسمح به نفس الابن الوارث تفضلا "[٥٨]" .

وبتطور الحضارة الإسلامية في هذه المناطق وقيام الممالك الإسلامية ظهر القضاء الإسلامي الذي هو أساس بناء المجتمع المسلم واستمد القضاة المسلمون أحكامهم من القرآن الكريم والسنة المطهرة ، واجتهادات علماء المذهب المالكي وكانت أحكامهم نافذة لدى السلطان والرعية ، ومن هنا ظهرت أهمية منصب القاضي وخطورته كضرورة حتمية لإعادة الأمور إلى نصابها ، ويشترط في القاضي أن يكون عالما فقيها متصفا بالنزاهة والورع لذا كان العلماء هم أصلح من يتولى مناصب القضاء في الدولة ، فكان سلاطين البلاد يولون هذه المناصر للعلماء ، ويخولون لهم السلطات المطلقة في أمور الدين وتوكل إلى العلماء كذلك وظيفة شاهد القاضي ، وهي ذات صلة بالقاضي كما هو واضح من تسميتها ، وشهود القاضي وأعوانه هم من العلماء الذين يوقعون مع القاضي على الوثائق الهامة كوثائق الصلح الذي يعقد بين الجماعات المتخاصمة والقبائل المتحاربة . ولكل قاض شاهدان "قاضي اليمين وقاضي الشمال" يرافقان القاضي ويستشيرهما في أمور القضاء ، كما يستشيرهما السلطان في أمور الدولة مع الأعيان من كبار ورجال الطوائف والعشائر .

وكان للقاضي بجانب مهمة القضاء الإشراف على النواحي التعليمية والثقافية في المنطقة التي يمارس فيها عمله، ويتمثل دوره هنا في العناية بتوفير السكن للوافدين من طلاب العلم، وتوزيع المواد الغذائية وإعانة المعلمين بما يمكنهم من القيام بتلك المهام، ويتولى القاضي إدارة التعليم في قصور الحكام والأمراء وإمامة المساجد، ويقوم بدور الموجه الديني، ويصدر الفتاوى الدينية"[٥٩]".

وبشكل عام فإنه نظرا للمكانة الكبيرة التي حازها العلماء في جميع الممالك الإسلامية الشادية، فإن الحكام يسعون بكل ما يملكون في التقرب منهم ليضفوا الطابع الديني على حكمهم، بالمقابل استغل العلماء هذه المكانة السامية في تدعيم الحضارة الإسلامية حول بحيرة شاد، وذلك بتوجيه الملوك نحو تطبيق الحضارة الإسلامية ونشرها في المناطق المجاورة.

د/ دور التعليم الإسلامي في تدعيم الحضارة الإسلامية:

يرجع الفضل في تدعيم الحضارة الإسلامية حول بحيرة شاد في جزء كبير منه إلى نظام التعليم الإسلامي الذي كان سائدا في هذه المنطقة منذ أن وصلها الإسلام وظلت بقايا منه إلى اليوم.

فنظرا للمكانة التي يوليها الملوك عامة للعلم والعلماء انبرى جزء منهم إلى طلب العلم، وشقوا طريقهم إلى مراكز العلم والثقافة في البلدان الإسلامية سيرا على الأقدام، وإذا ما أتموا دراستهم في الدين والشريعة الإسلامية واللغة العربية، رجعوا إلى بلادهم دعاة ومعلمين ينشئون المدارس التي يحضر إليها الطلاب لحفظ القرآن، والتفقه في الدين وشعائره، والتزود بقواعد اللغة العربية، وقد يختلف المنهج الدراسي الذي يعطي للطلاب من مدرسة إلى أخرى في الزمن السابق، ومن وقت إلى آخر، إلا أن إطاره العام يتكون من إعطاء الطالب في البداية دروسا في القراءة والكتابة على الألواح وهذه الدروس جلها عبارة عن مختارات من القرآن الكريم، وعادة يبدأ الطالب قراءته من السور القصار ثم يتدرج إلى السور الطوال خاصة في الختمة الأولى للقرآن، ثم يرجع من السور الطوال إلى القصار، ويركز المعلمون منذ المرحلة الأولى على أن يحفظ الطالب شيئا من القرآن في

صغره ، فهم يرددون كثيرا القول المأثور : "العلم في الصغر كالنقش في الحجر" ، ولذلك فالطالب النابه هو الذي يستطيع حفظ القرآن في مراحله الأولى ، ثم تأتي في منهجهم علوم القرآن الأخرى وأهمها تجويد القرآن الكريم ، ويجود القرآن في هذه المنطقة بطريقة خاصة ، فمع أن الرواية الأكثر انتشارا هي رواية ورش عن نافع ، إلا أن لعلماء القراءات هنا طرقا متعددة ومتميزة في التجويد ، وهناك طريقة خاصة لإحصاء المعلومات الأساسية لكي يكون الحافظ مجازا في علوم القرآن الكريم فهو يحتاج إلى حساب لوقف القرآن ، يوضع في البداية في كل ثمن أو ربع – حسب ما يستطيع المتعلم استيعابه وكتابته على لوحه – وقواعد الإملاء التي يركز عليها كثيرا أثناء النظر إلى اللوح من قبل المعلم كل يوم ، وعلى مرأى من القراء الآخرين ، الذين لهم الحق في التنقيب عن أي خطأ إملائي أو غيره والإشارة إليه ليصحح من قبل المعلم ، وهي عملية تطلب الكثير من التدقيق والمنافسة ، وحساب السور ، وعدد آياتها ، والكلمات والآيات الفردية والثنائية والمتكررة .

وتتم كل هذه الأعمال بحساب الحروف بصورة مضبوطة ومحكمة ، وبالتالي فهي تتطلب وقتا طويلا ، ومقدرة كبيرة على الحفظ ، ومن الملاحظات الهامة أن طريقة القيم العددية للحروف العربية الأكثر انتشارا عند القراء حول بحيرة شاد هي طريقة "أبجد" المنتشرة في سائر البلاد العربية في حساب الجمل المعروف وليست طريقة "أبقش" المنتشرة عند المغاربة ، رغم أن الخط العربي الأكثر انتشارا هو الخط المغربي .

وبعد أن يقطع الطالب شوطا في علوم القرآن ينتقل إلى الفقه الإسلامي وهناك كتب تدرس في هذه المنطقة بالتدريج مثل : كتاب العشماوي والأخضري ورسالة أبي زيد القيرواني إلى أن يصل الطالب إلى مختصر خليل ، ومنهم من يصل إلى مدونة مالك وشرحها ، وبعده ينتقل إلى دراسة الحديث مبتدئا بحديث الأربعين ، ثم أبي جمرة ورياض الصالحين إلى الصحاح الستة ، وهنا يمكن للطالب أن يتعلم كتب التفسير ، ويبدأ عادة بتفسير الجلالين ، ثم تفسير ابن عباس وابن كثير ويحصل الطالب المجد في إعداده في بعض الأحيان إلى دراسة النحو وعلوم اللغة العربية المختلفة ، فقد

لوحظ أن للمثقفين بالعربية في هذه المنطقة عناية خاصة بإتقان اللغة العربية ، لأنها اللغة التي تكتب بها الكتب الدينية ، وقد بلغت عندهم حد الغنى والجمال ، فبمجرد إتقانهم لها تصبح لغة التخاطب المفضلة للتفاهم داخل شريحة المثقفين ، وتستخدم دراسة اللغة العربية كمقدمة لدراسات الأدب العربي ، بل أدب في حد ذاتها ، وهي إلى جانب لغة شريعة وقانون مكتوبة "[٦٠]" .

وحول أهمية اللغة العربية للمتعلمين في أفريقيا وغيرهم يقول" بورت سميث" وفي ظل الإسلام أنشئت مدارس لو اقتصرت على تعليم القرآن لكانت ذات قيمة ، فما بالك وقد خطت خطوات واسعة في مختلف الدراسات" "[٦١]" .

أما عن الأماكن التي كان يتم فيها التعليم الإسلامي ، فذكر الكتاب أن أول مكان انطلق منه التعليم الإسلامي حول بحيرة شاد هو المسجد الذي أولاه أهل هذه البلاد عناية خاصة ، فيذكر "البكري" أنه في القرن الحادي عشر يوجد في مدينة واحدة اثنا عشر مسجدا ، وهذا ما فسر به كثرة الفقهاء والعلماء والطلاب في هذه المدينة "[٦٢]" . وبعد المسجد يأتي دور "المسيح" وهو يقوم مقام المسجد في القرى الصغيرة ومنازل البدو ، وبعض الحارات في المدن الكبيرة ، وهو مكان للذكر وحفظ القرآن ، وفيه يجلس المعلمون يلقنون الناس كبارا وصغارا القرآن الكريم وعلوم الفقه والتوحيد وقواعد اللغة العربية . ومن الأماكن التي استغلت لنشر التعليم العربي منازل العلماء ، فمن عادات بعض العلماء ألا يذهبوا إلى المسجد أو المسيح لإعطاء العلم ، بل يجعلوا من بيوتهم مدارس يلتقون فيها بطلابهم ، وهي طريقة متبعة إلى اليوم لدى بعض العلماء ، وهي تعطي العالم والطلاب حرية اختيار وقت الدراسة والمدة الزمنية لأي علم من العلوم وهذه الخاصية ربما لا تتوفر في المسيح باعتبارهما أماكن عامة .

وبالإضافة إلى الأماكن السابقة اختار بعض السلاطين والأمراء وبعض أصحاب الثروة أماكن أخرى للتعليم الإسلامي حيث يطلبون من المعلم أن يحضر إليهم في منازلهم ليتعلموا هم على يدهم ، أو أن يعلموا أولادهم ، وهي طريقة قريبة جدا من التعليم الخاص ، وكل الأماكن السابقة لم تلغ دور "الكتاب" الذي يخصص أساسا لتعليم الأطفال الكتابة والقراءة وأجزاء من القرآن الكريم "[٦٣]" .

ويصوره لنا الدكتور عمر الماحي على النحو التالي : "يلفت الصغار عندما يعودون من أعمالهم الشاقة – رعي البقر والغنم والإبل وإحضار الحطب والقش – في حلقات لحفظ القرآن الكريم حول المعلم طوال أيام الأسبوع ، ماعدا الخميس والجمعة وأيام العطل الرسمية ، أهمها عطلة عيد الفطر وعيد الأضحى المبارك (١٥) يوما ، أما عيد المولد النبوي الشريف فمخصص له عشرة أيام" "٦٤" .

ونفس صورة الكتاب هذه التي تصدق على القرية والبادية الشادية تنطبق على الكتاب في حارات المدن الكبيرة مثل انجمينا .

ومن أهم الأساليب التعليمية التي اتبعت في التعليم العربي حول حوض شاد أساليب التلقين والكتابة والعرض ، ويستخدم أسلوب التلقين للطلاب المبتدئين حيث يقوم المدرس بتكرار الدرس على طلابه حتى يتأكد من حفظهم له ، بينما أسلوب الكتابة يستعمل للطلاب الذين أجادوا الكتابة والقراءة وهنا يكون دور المعلم هو الإملاء على التلاميذ سواء أكان ذلك آيات قرآنية ، أم أي علوم دينية أو عربية أخرى ، ويكتب الطلاب في البداية على ألواح من الخشب الذي يصنع محليا ويعتبر الأسلوب الثالث وهو العرض من الأساليب المميزة في تقلي الحديث النبوي الشريف ، ويسمى القراءة على الشيخ ، وهو أن يقرأ الطالب على الشيخ ما حفظه على ظهر قلب ، أو من كتاب أو من لوح ويطالعه الشيخ معتمد على حفظه ، أو مقابلا على أصل الكتاب الذي يقرأ من الطالب .

فيقوم الأستاذ بعد ذلك بشرح النص والتعليق عليه بما لديه من معلومات حول الموضوع وشروح أخرى ، وهذه المرحلة يصل إليها الطلاب الذين تلقوا قدرا كبيرا من العلم ، وتوسعة مداركهم "٦٥" .

وبعد أن يصل الطالب إلى المستوى العالي في التعليم العربي يكون حرا بعد ذلك في اختيار العلوم التي يريد التخصص فيها ، وله الحرية أيضا في اختيار الشيخ الذي يتقن هذه العلوم ، ومن هنا نشأت ظاهرة الترحال من أجل العلم والبحث عن العلماء في كل مكان ، وهو ما عرف به طلاب هذه المنطقة في تنقلهم وترحالهم إلى المراكز الثقافية في البلدان

الإسلامية خاصة المعاهد الدينية في السودان الشرقي والقيروان وفاس والأزهر . وبعد أن يتم الطالب تعليمه العالي يجاز علميا من قبل الشيخ الذي درسه حيث يعطيه إجازة بالنقل عنه ، وقد تكون الإجازة بخط يده ، وقد تذاع على الناس من خلال احتفال عظيم يحضره كبار المنطقة والعلماء والعظماء والكثير من عامة الناس ، وأفراد أسرة الطالب المجاز ، وغالب ما يتبع إعطاء الإجازة إرفاق لقب معين بالمجاز للدلالة على علمه ، وأهم لقب يطلق على المتميزين في مجال تدريس القرآن وحفظه لقب " قوني " الذي يعني قوي في علوم القرآن الكريم ، وهو لقب متداول إلى اليوم لدى حفظة القرآن الكريم ، وهو أعلى لقب في مجال علوم القرآن والحائز عليه يكتسب مكانة عالية لدى زملائه وعامة الناس ، ويلقى الإجلال والاحترام من كبار القوم ، ويحق له أن يعلم غيره القرآن وعلومه وأن يمنح هذا اللقب نفسه لأحد تلاميذه إذا وصل إلى نفس الدرجة ، وتمنح شهادات أخرى شخصية في علوم الدين خاصة الفقه والحديث والنحو والتفسير ، ويطلق على حاملها لقب: شيخ ، معلم ، أستاذ ، فقيه ، سيدنا ، مدرس ، ولكنه يحافظ على سنده من أساتذته السابقين وإن كان شفويا ، وذلك بأن يستشهد بأساتذته الذين أخذ العلم لديهم وهو ما يعطي ثقة بالأمانة العلمية لديهم من ناحية ولتقوية مركزه ورأيه في الأمور التي يبت فيها من ناحية أخرى . ويلاحظ أن التعليم الإسلامي قد دعم الحضارة الإسلامية في هذه المنطقة دعما كبيرا من خلال نشره للثقافة الإسلامية إلى مناطق واسعة من وسط أفريقيا إلا أن أكبر دعم قدمه التعليم الإسلامي حدث بعد التحدي الذي فرضه الاستعمار الفرنسي على المجتمع الشادي ، فقد كان الملاذ الوحيد الذي حافظ على الهوية الإسلامية الشادية .

وقد فرضت عمليات التذويب الثقافي الفرنسي على القائمين بالتعليم الإسلامي تطويره لكي يواكب هذه التحديات وذلك بالانفتاح على البلدان الإسلامية والاستفادة من تجاربها في هذا

المجال، فأرسلت البعثات العلمية سواء بطريقة فردية أو من خلال الممالك الإسلامية إلى المراكز الإسلامية الكبرى مثل معاهد السودان الدينية والأزهر والزيتونة للتعرف على أنجع الطرق لاكتساب التعليم الذي يمكن من خلاله مواجهة الغزو الثقافي الذي تطلقه الإدارة الفرنسية .

وقد تركزت جهود العلماء في الداخل على تأسيس بنية تعليمية عربية حديثة بالإضافة إلى الاستعانة بجميع وسائل التعليم التي كانت موجودة في السابق ، وبذلك تم تأسيس بعض المعاهد والمدارس العربية أهمها المعهد العلمي بأبشة عام ١٩٤٦م. ومعهد التربية الإسلامية عام ١٩٥٦م. ومعهد النهضة العربية عام ١٩٥٨م . في العاصمة انجمينا .

وهذه المعاهد نتيجة طبيعية لتأثير خريجي المعاهد الدينية في السودان والأزهر ، وخاصة بين عامي ١٩٤٦ ، ١٩٥٦م . بظهور الشيخ عليش عووضة ، محمد الطيب طاهر ، إسماعيل ، محمد صالح علي . فقد عاد الشيخ عليش عووضة من مصر مرورا بالسودان إلى شاد بعد إتمام دراسته في الأزهر ، فأسس المعهد العلمي في أبشة عام ١٩٤٦م . وكان هذا المعهد يقوم من الناحية الإدارية ومنهجه الدراسي على نمط المعاهد العلمية في السودان والأزهر ، فتطور المعهد بسرعة أذهلت السلطات الفرنسية حيث بلغ عدد طلابه في فترة وجيزة أكثر من (٣٥٠) طالبا ، فأعاقت الإدارة الفرنسية تقدمه محاربة منها للغة العربية والثقافة ومؤسساته التعليمية الحديثة ، فحاكت حول مؤسسة المؤتمرات ، ثم أمرت بإغلاقه عام ١٩٥٣م . على الرغم من ذلك ظل الطلبة الذين تخرجوا من هذا المعهد بالاشتراك مع زملائهم الذين عادوا من المعاهد الدينية في السودان والأزهر يواصلون نشاطهم من أجل نشر الثقافة الإسلامية ، إذ أخذ بعضهم يلقي الدروس في المساجد وبعضهم يلقيها في البيوت ، والبعض الآخر فتح معاهد ومدارس دينية في مختلف المناطق حول حوض شاد .

وفجأة ارتفعت في تلك الفترة أعداد الطلبة الشاديين في القاهرة من (١٥) من عام ١٩٤٦م . إلى (١٥٠) طالبا عام ١٩٥٦م.

واستمر تطور التعليم الإسلامي في شاد في دعمه للحضارة الإسلامية بعد الاستقلال فتطورت مدارسه على النمط الحديث أي ابتدائي ، إعدادي ، ثانوي ، جامعي ، فتشير آخر إحصائية أولية للمدارس الإسلامية العربية في شاد قدمها اتحاد المدارس العربية بأن هنالك (٨٥) مدرسة ابتدائية و (١٥) إعدادية و (٨) مدارس ثانوية موزعة على جميع منطقة شاد في الشرق والجنوب والوسط وإن كان جلها في العاصمة انجمينا .

وللتعليم العالي العربي قسم في جامعة شاد والمعهد العالي للمعلمين ، وفي عام ١٩٩٢م أجازت الدولة قيام جامعة كاملة تدرس باللغة العربية هي جامعة الملك فيصل بانجمينا .

الخلاصة :

ومجمل القول أن الحضارة الإسلامية انتشرت حول حوض شاد في القرن الأول الهجري السابع للميلاد ، ولكن نظرا لطبيعتها السلمية في الانتشار فإنها احتاجت لكثير من الوقت لتكون إمبراطوريات باسمها خاصة في القرن الحادي عشر ، فظهر تأثيرها بعد ذلك في النظم الاجتماعية والسياسية والاقتصادية والدينية ودعمها في ذلك سماحة الدين الإسلامي وجهود قادتها ودعاتها وعلمائها والتعليم الإسلامي .

الهوامش:

[١] Chapelle , Jean: Le Peuple Tchadien ses Racines et sa vis Quotidienne , L`Harmattan , Paris , 1986 , P. 149.

[٢] كابي ، أ.م (مظاهر الاتصالات الفكرية والثقافية بين شمال إفريقيا ووسط السودان بين سنة ٧٠٠ إلى ١٧٠٠ م مع إشارة خاصة إلى كانم - برنو وأرض الهوسا) مجلة الدراسات التاريخية ، طرابلس ، السنة الثالثة، ص١٢-١٣ .

[٣] عبدالجليل ، الشاطر بصيلي : تاريخ وحضارة السودان الشرقي والأوسط من القرن التاسع إلى القرن التاسع عشر الميلادي ، الهيئة المصرية للكتاب ، القاهرة ، ١٩٧٢م ، ص٤١٧ .

[٤] د. السيد عبدالعزيز : المغرب الكبير ، دار النهضة العربية ، بيروت ١٩٨١م ، ص١٩٣ .

[٥] الطيبي، د.أمين: (وصول الإسلام وانتشاره في كانم برنو بالسودان الأوسط) ، مجلة كلية الدعوة الإسلامية ، العدد الرابع ، طرابلس ١٩٨٧ ، ص١٨٤ .

[٦] لانجي ، ديرك: (ممالك شاد وشعوبها) تاريخ إفريقيا العام ، المجلد الرابع (بإشراف:ج.ت.نياني) اليونسكو ، باريس ١٩٨٨م ، ص٢٤٧ .

[٧] القلقشندي ، أبي العباس أحمد بن على (٨٢١ هـ- ١٤١٨): صبح الأعشى في صناعة الانشأ ، المؤسسة المصرية العامة ، القاهرة الجزء الخامس ، ص٢٨-٢١٨ .

[٨] ابن بطوطة ،أبوعبدالله محمد الطنجي : تحفة الأنظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار ، الجزء الأول ، المكتبة التجارية الكبرى ، القاهرة ١٩٦٤ ، ص٢٠٩ .

[٩] بولم / دينس: الحضارات الإفريقية (ترجمة على شاهين) ، مكتبة الحياة ، بيروت (ب.ت) ، ص٤١-٥٩ .

[١٠] ابن فوتو ، الإمام أحمد: ديوان السلاطين ، المطبعة الأميرية ، كانو (ب.ت) ، ص٢ .

[١١] Bouquet , Christian : Tchad ; Genèse d`Un conflit L`Harmattan , Paris, 1982 , P.40-41

[١٢] عبدالجليل ، الشاطر البصيلي : مرجع سبق ذكره ، ص٤٢٦ .

[١٣] التونسي ، محمد بن عمر : تشحيذ الأذهان بسير بلاد العرب والسودان (تحقيق د.خليل عساكر ، د.مصطفى مسعد) ، الدار المصرية للتأليف والترجمة ، القاهرة ١٩٦٥ ، ص٢٦٥ .

[١٤] الترجمي ، الشيخ عبدالخالق: الدولة الوداوية الإسلامية ، من ملخص للمخطوط قدمه أ. عثمان على محمد، في مخطوط له بعنوان: لمحات من التاريخ التشادي الإسلامي ، المعهد الوطني للعلوم الإنسانية ، جامعة شاد ، رقم (٤٠) ، ص٥-٨ .

[١٥] أيوب ، محمد صالح : (كانم برنو وانتشار الثقافة العربية في وسط إفريقيا) ، مجلة الثقافة العربية ، العدد (٩) السنة (١٦) ، مطابع الثورة العربية ، بنغازي ، ١٩٨٨ ، ص٣٠-٣٢ .

[١٦] أرنولد ، السير توماس : الدعوة إلي الإسلام ، بحث في تاريخ نشر العقيدة الإسلامية ، (ترجمة د.حسن إبراهيم ، دعبدالحميد عابدين ، د.إسماعيل النجدواي) ، مكتبة النهضة المصرية ، القاهرة ، ط٣، ١٩٥٧ ، ص٤٤٩-٤٥٠ .

[١٧] الزيادي ، محمد فتح الله: ظاهرة انتشار الإسلام وموقف بعض المستشرقين منها ، الكتاب الإسلامي ، طرابلس ١٩٨٤ ، ص٢٩٦ .

[١٨] أدمو ، مهدي: (الهوسا وجيرانهم بالسودان الأوسط) ، تاريخ إفريقيا العام ، المجلد الرابع ، إشراف (ج.ت.نياني) ، منشورات اليونسكو ، باريس ١٩٨٨ ، ص٢٩٦ .

[١٩] أيوب ، محمد صالح : (بحيرة شاد وانتشار الثقافة العربية في وسط إفريقيا) ، مجلة الثقافة العربية ، العدد الأول ، السنة (١٧) ، مطابع الثورة العربية ، بنغازي ١٩٨٩م ، ص٦٠ .

[٢٠] همباتي ،ب،أ . (المأثور الحي) ، تاريخ إفريقيا العام ، المجلد الأول (بإشراف ج.تي.زربو) جين افريك ، اليونسكو ، باريس ١٩٨٠ ، ص٢٠٦ .

[٢١] المرجع السابق ، ص٢٠٦ .

[٢٢] الدو ، فضل كلود : الثقافة الإسلامية في العصر الذهبي لإمبراطورية كانم ، (رسالة دكتوراه غير منشورة) ، جامعة الأزهر ، القاهرة ١٩٨١م ، ص١٤٢-١٤٣ .

[٢٣] أرسلان ، الأمير شكيب: (الدعوة إلى الإسلام في إفريقيا) ، حاضر العالم الإسلامي ، تأليف لوثر استودار (نقله إلى العربية أ. عجاج نوهيض) .

[٢٤] ارنولد ، السير توماس ، مرجع سبق ذكره ، ص٣٩١-٣٩٣ .

[٢٥] الدو ، فضل كلود: مرجع سبق ذكره ، ص١٤٥ .

[٢٦] المرجع السابق ، ص١٢٥-١٢٦ .

[٢٧] المرجع السابق ، ص١٣٠ .

[٢٨] ارنولد ، السير توماس ، مرجع سبق ذكره ، ص٣٩١-٣٩٣ .

[٢٩] الدو ، فضل كلود: مرجع سبق ذكره ، ص١٢٧ .

[٣٠] أيوب،محمد صالح:جماعات التحديث الاجتماعي في وسط إفريقيا،مطبعة المعرفة ، القاهرة ١٩٩١، ص٢٤.

[٣١] رودني، وألتر:أوربا والتخلف في إفريقيا، (ترجمة أحمد القصير)، عالم المعرفة الكويت١٩٩١ ،ص٩٦-٩٧.

[٣٢] زكي ، د.عبدالرحمن : تاريخ الدولة الإسلامية السودانية بإفريقيا الغربية ، المؤسسة المصرية الحديثة ، القاهرة ١٩٦١ ، ص٢٣٢ .

"٣٣" فرانكة ، فلكس (أبحاث هنريس بارث ١٨٢١-١٨٦٥) ، نشر المقال صلاح المجند في كتاب :المستشرقون الألمان ، دار الكتاب الجديد ، بيروت ، بيروت ، ج١، ١٩٨٢ ، ص٤٢ .

"٣٤" قداح نعيم:حضارة الإسلام وحضارة أوربا بإفريقيا الغربية،مكتبة أطلس،دمشق ١٩٦٥م،ص١٨٧-١٩١.

"٣٥" بلو، الإمام محمد : اتفاق الميسور ، (تحقيق: وتنفي) ، كانو (ب.د) ١٩٥٧ ، ص٧-٩ .

"٣٦" Herskovits, M.J. : L`afrique Et Les Africains. Payât. Paris. 1965. P.120.

"٣٧" Chapelle. Jean Le peuple Tchadiennes Racines Wt sa Vie quoti- dienne, L`Harmattan, Paris, 1986, P.126-127.

"٣٨" ابن فرتو ، الأمام أحمد : أخبار وغزوات السلطان إدريس الومة ، المطبعة الأميرية ، كنـــو ، (ب.ت) ، ص ص ١٢٥-١٢٩ .

"٣٩" المرجع السابق ، ص ١٣٢ .

"٤٠" الترجمي ، الشيخ عبد الحق : تبصر ة الحيران من هول فتن الزمان ، مخطـــوط ، المعـــهد الوطـــني للعلـــوم الإنسانية ، انجمينا ، ٣١ .

"٤١" الدوي ، الشيخ إبراهيم صالح : تاريخ الإسلام وحياة العرب في إمبراطورية كانم - برنو ، شركة ومكتبـــة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر القاهرة ، ١٩٧٦م ، ص ٨١-٨٣

"٤٢" الطي ، د. أمين : مرجع سبق ذكره ، ص ١٨٤ .

"٤٣" الدكو ، د. فضل كلود سبق ذكره ، ص ١١٤-١١٥ .

"٤٤" المرجع السابق ، ص١١٥ .

"٤٥" ابن فرتو ، الإمام أحمد : أخبار وغزوات السلطان إدريس الومة ، كنو (ب.ت) ، ص١٣٢.

"٤٦" المرجع السابق ، ص١٢٥-١٢٩ .

"٤٧" النوي ، الشيخ إبراهيم صالح :مرجع سبق ذكره ، ص٨١-٨٣ .

"٤٨" الطيبي ، د.أمين ، مرجع سبق ذكره ، ص١٨١ .

"٤٩" ابن فرتو ، الإمام أحمد : مرجع سبق ذكره ، ص٤-٥ .

"٥٠" المرجع السابق ، ص١٣-١٧ .

"٥١" نفس المرجع ، ص٢٧ .

"٥٢" Tibiana. Marie-Jose, ISSA HASSAN KHAYAR ET PAUL DEVI: ABDEL-KARIME propagator de I`islam et fondateur du Royamedu Ouddi, C.N.R.S , Paris 1978 ,P.5-37 .

"٥٣" أر نولد ، توماس ، مرجع سبق ذكره ، ص٣٥٩-٣٦٠ .

[٥٤] عبدالجليل ، الشاطر البصيلي : تاريخ وحضارة السودان الشرقي والأوسط من القرن التاسع إلى القرن التاسع عشر الميلادي ، الهيئة العامة للكتاب ، القاهرة ١٩٧٢ ، ص٤٢٦ .

[٥٥] شلبي د.أحمد : موسوعة التاريخ الإسلامي ، مكتبة النهضة المصرية ، القاهرة ، ١٩٧٥م ، ص ٣٠٣.

[٥٦] المرجع السابق ، ص ٢٩٩-٣٠٢ .

[٥٧] النوي ، الشيخ إبراهيم صالح : مرجع سبق ذكره ، ص ٥٥ .

[٥٨] الدكو ، د. فضل كلود : مرجع سبق ذكره ، ص ٥٥ .

[٥٩] المرجع السابق ، ص ١٤٧ ، ٢١٩ ، ٢٢١ .

[٦٠] شلبي ، د. أحمد : مرجع سبق ذكره ، ص ٦٨٥ .

[٦١] الدكو ، د. فضل كلود : مرجع سبق ذكره ، ص ١٠٥ .

[٦٢] نفس المرجع ، ص ١٦٥-١٦٦ .

[٦٣] الماحي ، د. عبد الرحمن عمر : شاد من الاستعمار حتى الاستقلال ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة، ص ١٠٣ .

[٦٤] الدكو ، مرجع سبق ذكره ، ص ١٧٥-١٧٦ .

[٦٥] الماحي ، د. عبد الرحمن عمر : مرجع سبق ذكره ، ص ١٠١-١٠٥ .